نظرات في معاني سورة يوسف

تأليف

عبد الكريم محمد نصر

دار أجيال للنشر الرقمي

مطبوعات Kie Publications

(كتاب الاقتصاد الإسلامي الالكتروني المجاني)

إنَّ (كتاب الاقتصاد الإسلاميّ الالكترونيّ المَجانيّ) يهدِفُ إلى:

- تبنيّ نَشرَ مؤلفاتِ علومِ الاقتصادِ الإسلاميِّ في السُوقِ العالميِّ؛ لتصبحَ مُتاحةً للباحثينَ والمشتغلينَ في المجالِ البحثيِّ والتطبيقيِّ.
- توفيرُ جميعِ المناهجِ الاقتصادية للطلابِ والباحثينَ بصبغةٍ إسلاميةٍ متينةٍ.
- أنَّ النشرَ الالكترونيّ يُعتبرُ أكثرَ فائدةً من النشرِ الورقيِّ.
- أنَّ استخدامَ الورقِ مسيءٌ للبيئةِ، ومُنهِكٌ لمَوارِدِهَا .

واللّهُ من وراءِ القصدِ

أسرة KIE Publications

لزيارة جامعة الاقتصاد الإسلامي kie university

لزيارة مركز أبحاث فقه المعاملات الإسلامية

مركز أبحاث فقه المعاملات الإسلامية
Islamic Business Researches Center

الكتاب: نظرات في معاني سورة يوسف وفوائدها وأسرارها

المؤلف: عبد الكريم محمد نصر

الإشراف الفني العام

دار إحياء للنشر الرقمي

الإصدار الإلكتروني الأول: نيسان ٢٠١٣

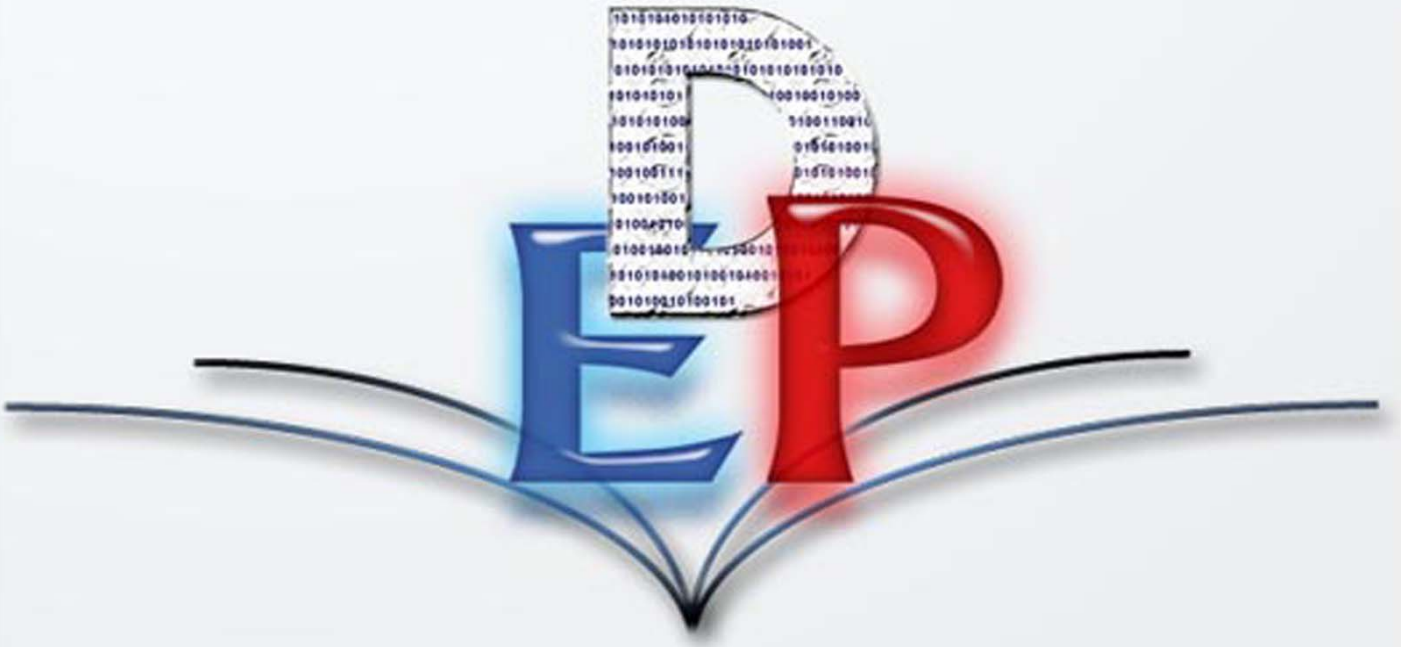

البريد الإلكتروني: Ehiaa.pup@gmail.com

الفهرس

الفصل	الموضوع	الصفحة
الأول	معاني سورة يوسف	٢
الثاني	فوائد وأسرار سورة يوسف عليه السلام	٦٣
الخاتمة		٧٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾١ قوله: ﴿الر﴾ يقول الشعراوي في تفسيره: يبين لنا سبحانه وتعالى أن ﴿الر﴾ أسماء لحروف هي من أسماء الحروف التي نتكلم بها، والقرآن الكريم تكونت ألفاظه من مثل تلك الحروف، ولكن آيات القرآن معجزة لا يستطيع البشر – ولو عاونهم الجن أن يأتوا بمثله في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾٢ إذن فالسمو ليس من ناحية ألفاظه التي تكوّن الكلام، ولكن معجزته أن المتكلم هو الحق سبحانه وتعالى، فلا بد أن يكون كلامه معجزاً، وإن كان مكوناً من نفس الحروف التي نستخدمها نحن البشر وهناك معنى آخر: فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينطق أسماء الحروف "ألف لام راء" وهو صلى الله عليه وسلم الأميّ (أي لا يقرأ من كتاب ولا يكتب) بشهادة المعاصرين من خصومه، رغم أن القادر على نطق أسماء الحروف لابد أن يكون متعلماً، ذلك أن الأميّ ينطق مسميات٣ الحروف ولا يعرف أسماءها، وفي هذا النطق شهادة بأن من علمه ذلك هو ربه الأعلى (ذلك الكتاب) وعندما تطلق كلمة الكتاب فمعناها ينصرف إلى القرآن الكريم وقد وردت كلمة الكتاب في القرآن الكريم (٢٣٠) مرة. ونجد كلمة ﴿الْمُبِينِ﴾ أي الذي يبين كل شيء تحتاجه حركة الإنسان الخليفة في الأرض، فإن ظهر لك شيء وظننت أن القرآن لم يتعرض له، فلا بد أن تبحث عن مادة أو آية تنقلك إلى ما يبين ما غاب عنك ويروى عن الإمام محمد عبده أنه قابل أحد المستشرقين من علماء الغرب المهتمين بعلوم الشرق في باريس ووجه المستشرق سؤالاً للإمام فقال: ما دامت هناك آية في القرآن ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾٤ فدعني أسألك كم رغيفاً ينتجه إردب القمح؟ فقال الإمام للمستشرق:

١- يوسف: ١

٢- الإسراء: ٨٨

٣- الفرق بين الاسم والمسمى بالنسبة للحروف أن حروف مثل (ك) (ت) (ب) ينطق الأمي في كلامه (كتب) كمسميات للحروف، ولكنه لا يستطيع أن يقول لك: إن هذا الحرف اسمه (ك) أو أن هذا الحرف اسمه (تاء) أو أن هذا اسمه (باء) فهولا يستطيع أن يتهجى الكلمة يستطيع أن ينطقها للدلالة على فعل الكتابة، وقد أخذها من أفواه الناس هكذا من مفهوم الخواطر

٤- الأنعام ٣٨

انتظر: واستدعى الإمام خبازاً وسأله كم رغيفاً يمكن أن نصنعه من أردب القمح؟ فأجاب الخباز على السؤال، قال المستشرق: لقد طلبت منك إجابة من القرآن، لا من الخباز، فرد الإمام إن كان القرآن قد قال٥ فإنه اثبت فيه ما يقع من الحوادث، وقيل في القرآن أي ما تركنا شيئاً من أمر الدين قال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾٦ فالقرآن قال أيضاً: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾٧ لقد فطن الإمام محمد عبده إلى أن العقل البشري أضيق من أن يسع كل المعلومات التي تتطلبها الحياة، لذلك شاء الحق أن يوزع المواهب بين البشر، ليصبح كل متفوق في مجال من أهل الذكر في مجاله ونحن على سبيل المثال عندما نتعرض لمسألة من الميراث نلجأ إلى من تخصص في المواريث ليدلنا على دقة توزيع هذا الميراث وحين يؤدي المسلم من العامة فريضة الحج فيكفيه أن يعلم الحج فريضة، ويبحث عند بدء الحج عمن يعلمه خطوات الحج أداها صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾٨ وبالنسبة للقرآن الكريم نجد الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾٩ أي جبريل عليه السلام قاله غير واحد من السلف كابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفي والسدي والضحاك والزهري كما قاله ابن كثير في تفسيره فنسب النزول مرة لجبريل كحامل للقرآن ليبلغ به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومرة يقول (نزّل والنزول في هذه الحالة منسوب إلى الله وجبريل والملائكة) أما قول الحق سبحانه وتعالى (أنزل) فهو القول الذي يعني أن القرآن قد تعدى كونه مكنوناً في اللوح المحفوظ ليباشر مهمته في الوجود ببعث رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا هو معنى الإنزال للقرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل من بعد ذلك نجوماً متفرقة نجماً بعد نجم أي آية بعد آية على حسب الأحداث والأحوال ليعالج المسائل التي تعرض لها المسلمون، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوقائع

٥-- قال: القرطبي في تفسيره (٣/٢٥٠٥) أي في اللوح المحفوظ.

٦- الأنعام: ٣٨

٧- الأنبياء: ٧

٨- يوسف: ٢

٩- الشعراء: ١٩٣

لهبط به إلى الأرض جملة واحدة كسائر الكتب. وإنّ نزوله نجماً بعد نجم أدعى لقبوله. بخلاف ما لو نزل جملة واحدة، فإنه كان ينفر من قبوله كثير من الناس لكثرة ما فيه من الفرائض والنواهي وذكر أبو شامة في المرشد الوجيز أن السر في عدم إنزاله جملة واحدة من السماء تفخيم أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لننزله عليهم قوله تعالى: ﴿عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾١٠ . وفي الآية السابقة قال: (تلك آيات الكتاب) فمرة يصفه بأنه قرآن بمعنى المقروء، ومرة يصفه بأنه كتاب لأنه مسطور، وهذه من معجزات التسمية ونحن نعلم أن القرآن حين جمع ليكتب، كان كاتب القرآن لا يكتب إلا ما يجده مكتوبا، ويشهد عليه اثنان من الحافظين، ومن المعلوم أن الصدور قد تختلف بالأهواء أما السطور فمثبته لا لبس فيها وهو قرآن عربي: لأن الرسول صلى الله عليه وسلم سيجاهر بالدعوة في أمة عربية، وكان لابد من وجود معجزة تدل على صدق بلاغه عن الله تعالى وأن تكون مما نبغ فيه العرب، لأن المعجزة مشروطة بالتحدي وكان العرب أهل بيان وأدب ونبوغ في الفصاحة والشعر يجتمعون في الأسواق مثل عكاظ، وذي المجاز وتتفاخر كل قبيلة بشعرائها وخطبائها، لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يكون القرآن معجزة من جنس ما نبغ فيه العرب، وهم أول قوم نزل فيهم القرآن لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾١١ والقصة في القرآن مرة تكون للحدث ومرة تكون لتثبيت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم تأت قصة رسول في القرآن الكريم كاملة إلا قصة يوسف عليه السلام. أما بقية الرسل فقصصهم جاءت لقطات في مناسبات لتثبيت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾١٢ فتأتي لقطة من حياة رسول ولقطة من حياة رسول آخر وهكذا ولا يقولنّ أحدٌ، إنّ القرآن لم يستطع أن يأتي بقصة كاملة مستوفية فقد شاء الحق سبحانه وتعالى أن يأتي بقصة يوسف من أولها إلى آخرها مستوفية،

١٠- يوسف: ٢
١١- يوسف: ٣
١٢- هود: ١٢٠

ففيها الحدث الذي دارت حوله أشخاص وفيها شخص دارت حوله الأحداث فقصة يوسف عليه السلام في القرآن لا تتميز بالحبكة بل جمعت نوعي القصة بالحدث الذي تدور حوله الشخصيات وبالشخص الذي تدور حوله الأحداث جاءت قصة يوسف بيوسف، وما مرّ عليه من أحداث بدءاً من الرؤيا، ومروراً بحقد الأخوة وكيدهم، ثم محاولة الغواية له من امرأة العزيز، ثم السجن، ثم القدرة على تأويل الأحلام، ثم تولي السلطة، ولقاء الإخوة والإحسان إليهم إذن فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾١٣ يبين لنا أن الحسن أتى لها من أن الكتب السابقة تحدثت عن قصة يوسف، ولكن أخبار اليهود حين قرأوا القصة كما جاءت بالقرآن ترك بعضهم كتابه، واعتمدوا على القرآن في روايتها، فالقصة أحداثها واحدة، إلا أن صياغة الأداء، وتلمسات المواجيد النفسية، وإبراز المواقف المطوية في النفس البشرية، وتحقيق الرؤى الغيبية كل ذلك جاء في حبكة ذات أداء بياني معجز جعلها أحسن القصص. هي أحسن القصص بما اشتملت عليه من عبر متعددة، عِبر في الطفولة في مواجهة الشيخوخة، والحقد الحاسد بين الأخوة، والتمرد، وإلقائه في الجب، والكيد له، ووضعه سجيناً بظلم، وموقف يوسف عليه السلام من الافتراء الكاذب، والاعتزاز بالحق حتى تم له النصر والتمكين وكيف ألقى الله على يوسف عليه السلام محبة منه ليجعل كل من يلقي به يحب خدمته وكيف صان يوسف إرث النبوة، بما فيها من سماحة وقدرة على العفو عند المقدرة، فعفا عن أخوته. بما روته السورة: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾١٤ وقد قالها سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة "اذهبوا فأنتم الطلقاء" هكذا تمتلئ سورة يوسف بعبر متناهية إذن فالحسن البالغ قد جاء من أسلوب القرآن المعجز الذي لا يستطيع واحد من البشر أن يأتي بمثله وعليه فإن معنى كونها أحسن القصص لما فيها من العبر والنكت والعجائب التي ليست في غيرها ومن أولى فوائد هذه القصة أنه لا دافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدر الله تعالى،

١٣- يوسف: ٣
١٤- يوسف: ٩٢

وأنه تعالى إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة، فلو أن أهل العالم اجتمعوا عليه لم يقدروا على منعه والفائدة الثانية: دلالتها على أن الحسد سبب للخذلان والنقصان والفائدة الثالثة: أن الصبر مفتاح الفرج كما في حق يعقوب عليه السلام فإنه لما صبر فاز بمقصوده، وكذلك في حق يوسف عليه السلام فأما قوله: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾١٥ فالمعنى بوحينا إليك هذا القرآن ثم قال: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾١٦ يريد من قبل أن نوحي إليك كنت لمن الغافلين عن قصة يوسف وأخوته والغافل: هو الذي لا يعلم لا عن جهل، أو قصور عقل ولكن ما غفل عنه هو أمر لا يشغل باله أو يكون المقصود: أنك يا محمد لم تكن ممن يعرفون قصة يوسف: لأنك لم تتعلم القراءة فتقرأها من كتاب ولم تجلس إلى معلم يروي لك هذه القصة، ولم تجمع بعضاً من أطراف هذه القصة من هنا أو هناك بل أنت لم تتلق الوحي بها إلا بعد أن قال بعض أهل الكتاب لبعض أهل مكة: اسألوه عن أبناء يعقوب وإخوة يوسف لما خرجوا من الشام وذهبوا إلى مصر. ذكره القرطبي في تفسيره من قول النحاس(٤/٣٤٤٠) ويروى أن اليهود قالوا: فسلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن خبر يوسف فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقاً لما في التوراة وفيه زيادة ليست عندهم قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾١٧ وكلنا رأينا الشمس والقمر لكن حلم يوسف يبين أنه رآهما معاً، وكلنا رأينا الكواكب متناثرة في السماء آلافاً لا حصر لها، فكيف يرى يوسف أحد عشر كوكبا فقط لابد أنهم اتصفوا بصفات خاصة ميزتهم عن غيرهم من الكواكب الأخرى، وأنه قام بعدهم ورؤيا يوسف عليه السلام تبين أنه رآهم شمساً وقمراً وأحد عشر كوكباً ثم رآهم بعد ذلك ساجدين وهذا يعني أنه رآهم أولاً بصفاتهم التي نرى بها الشمس والقمر والنجوم بدون سجود، ثم رآهم بعد ذلك وهم ساجدون له ومن سجدوا ليوسف إنما سجدوا بأمر من الله تعالى فهم إذن يعقلون.

١٥- يوسف: ٣
١٦- يوسف: ٣
١٧- يوسف: ٤

الحق سبحانه وتعالى مثلهم في ذلك مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاء انشَقَّت﴾ ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّت﴾١٨ هذه السماء تعقل أمر ربها الذي بناها وهي أيضا تسمع أمر ربها: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّت﴾١٩ وهكذا نجد أن كل عالم من عوالم الكون أمم مثل أمة البشر، ويتفاهم الإنسان مع غيره من البشر ممن يشتركون معه في اللغة وقد يتفاهم مع البشر أمثاله ممن لا يعرف لغتهم بالإشارة أومن خلال مترجم أو من خلال تعلم اللغة ولكن الإنسان لا يفهم لغة الجماد أو لغة النبات أو لغة الحيوان، إلا إذا أنعم الله على عبد بأن يفهم عن الجماد أو أن يفهم الجماد عنه والمثل هو تسبيح الجبال مع داود، ويشكل تسبيحه مع تسبيحها جوقة٢٠ من الانسجام مكون من إنسان مسبح هو أعلى الكائنات والمردد للتسبيح هو الجبال وهي من الجماد أدنى الكائنات، ونحن نعلم أن كل الكائنات تسبح، لكننا لا نفقه تسبيحها ولكن الحق سبحانه وتعالى يختار من عباده من يعلمه منطق الكائنات الأخرى قال سبحانه وتعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِين﴾٢١ وهكذا علمنا أنّ للطير منطقاً، وعلَّم سبحانه وتعالى سليمان لغة النمل قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُون﴾٢٢ (لسان العرب) ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، فتبسم ضاحكاً من قولها، وقال: (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِين) إذن: فلكل أمة من الكائنات لغة، وهي تفهم عن خالقها، وبهذا نعلم أن الشمس والقمر والنجوم حين سجدت بأمر ربها ليوسف في رؤيا فهمت عن أمر ربها.

١٨- الانشقاق: ١ - ٢
١٩ - الانشقاق: ٢
٢٠- الجوق في اللغة: كل خليط من الرعاة أمرهم واحد، وقال الكيث: الجوق كل قطيع من الرعاة أمرهم واحد، والجوق أيضا الجماعة من الناس
٢١- النمل: ١٦
٢٢- النمل: ١٨

وقد أخر الشمس والقمر لفضلهما على الكواكب، لأن التخصيص بالذكر يدل على مزيد من الشرف وقد رأى يوسف عليه السلام هذه الرؤيا في الصغر، وقال: وهب رآها وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصير أخوته إليه أربعون سنة وقيل: ثمانون سنة واعلم أن الحكماء يقولون إن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب، والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين. قالوا: والسبب في ذلك أن رحمة الله تقتضي ألا يحصل الإعلام بوصول الشر إلا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل، وأما الإعلام بالخير فإنه يحصل متقدماً على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير أكثر وأتم قال تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[يوسف:٥] وقول يعقوب ليوسف عليهما السلام يا بني يفهم منه أن يوسف عليه السلام ما زال صغيراً ونفهم من كلمة (رؤيا) أنها رؤيا مناميه، لأن الشمس والقمر والنجوم لا يسجدون لأحد، وهذا ما يوضح لنا دقة اللغة العربية وكلمة "رأى" قد يختلف المعنى لها باختلاف ما رؤي، فرؤيتك يقظان يقال: عنها "رؤية" ورؤيتك وأنت نائم يقال عنها "رؤيا" ولا يقدح في كلمة "رؤيا" أنها مناميه إلا آية واحدة في القرآن الكريم حين تحدث الحق سبحانه وتعالى عن لحظة عروجه صلى الله عليه وسلم إلى السماء فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾٢٣ ولكن من يقول: إنها رؤيا مناميه لم يفقهوا المعنى وراء هذا القول، فالمعنى هو: إن ما حدث شيء عجيب لا يحدث إلا في الأحلام لكنه حدث في الواقع، بدليل أنه قال عنها: إنها "فتنة للناس" فالرسول صلى الله عليه وسلم لو كان قال: إنها رؤيا مناميه لما كذبه أحد فيما قال، لكنه أعلن أنها رؤية حقيقية، لذلك عبر عنها القرآن بأنها فتنة للناس، والفتنة: الابتلاء والامتحان والاختبار (انظر لسان العرب) وحين يقص يوسف رؤياه على أبيه سينظر إلى الصالح ليوسف ويدله عليه أما إن قصّ الرؤيا على إخوته، فقد تجعلهم الأغيار البشرية يحسدون أخاهم، وقد كان وإن تساءل أحد: ولماذا يحسدونه على رؤيا مناميه، رأى فيها الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا يسجدون له؟ نقول لابد أن يعقوب عليه السلام قد علم تأويل الرؤيا وأنها نبوءة لأحداث سوف تقع، ولا بد أن يعقوب عليه السلام قد علم أيضا قدرة إخوة يوسف على تأويل تلك الرؤيا، ولو قالها يوسف لهم لفهموا المقصود منها،

٢٣- الإسراء: ٦٠

ولا بد حينئذ أن يكيدوا له كيدا يصيبه بمكروه قال القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٤٧) هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها فهم قد أصابهم الضيق من يوسف وهو ما زال طفلاً فما حالهم إن علموا مثل هذه الرؤيا التي يسجد له فيها الأب والأم والأخوة؟ ولا يعني ذلك أن نعتبر إخوة يوسف من الأشرار، فهم الأسباط٢٤ الذين يصيبهم من الضيق بسبب علو عاطفة الأب تجاه يوسف هو من الأغيار التي تصيب البشر فهم ليسوا أشرارا بالسليقة ٢٥، لأن الشرير بالسليقة تتصاعد لديه حوادث السوء ثم إن يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف وأخيه فحسده إخوته لهذا السبب وظهر ذلك المعنى والأسباط هم القبائل من أولاد يعقوب عليه السلام، وهم اثنتا عشر قبيلة تنسب إلى أبناء يعقوب الاثني عشرة ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾٢٦ القاموس القويم (١/٣٠٠) فلما ذكر يوسف عليه السلام هذه الرؤيا، وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له، فقال: لا تخبرهم برؤياك فإنهم يعرفون تأويلها فيكيدوا لك كيداً ثم قال تعالى: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾٢٧ والمعنى إنّ قصصتها عليهم كادوك، وهذا يدل على أنه قد كان لهم علم بتعبير الرؤيا وإلا لم يعلموا من هذه الرؤيا ما يوجب حقداً أو غضباً ثم قال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[يوسف:٥] والسبب في هذا الكلام أنهم لو أقدموا على الكيد لكان ذلك مضافاً إلى الشيطان ونظيره قول موسى عليه السلام (هذا من عمل الشيطان) ثم إن يعقوب عليه السلام قصد بهذه النصيحة تعبير تلك الرؤيا وذكر أموراً: أولها ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يعني وكما اجتباك بمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز، وكبر شأن كذلك يجتبيك لأمور عظام قال الزجاج: الاجتباء مشتق من جببت الشيء إذا خلصته لنفسك ومنه جببت الماء في الحوض واختلفوا في المراد بهذا الاجتباء فقال الحسن: يجتبيك ربك بالنبوة، وقال آخرون: المراد منه إعلاء الدرجة وتعظيم المرتبة،

٢٤- الأسباط: جمع سبط، والسبط الشجرة ذات أصل واحد ولها أغصان كثيرة، ونقل مجازا إلى شجرة النسب. فالسبط القبيلة المتفرعة من أصل واحد
٢٥- السليقة: الطبيعة والسجية، وفلان يقرأ بالسليقة أي بطبيعته لا يتعلم، وقيل: بالسليقة أي بطبيعته الذي نشأ عليه، قال: أبوزيد: إنه لكريم الطبيعة والسليقة (لسان العرب) ليعقوب عليه السلام بالأمارات الكثيرة
٢٦- الأعراف: ١٦٠
٢٧- يوسف: ٥

فأما تعيين النبوة فلا دلالة في اللفظ عليه وثانيها قوله: ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾٢٨ وفيه وجوه الأول: المراد منه تعبير الرؤيا سماه تأويلاً لأنه يؤول أمره إلى ما رآه في المنام. يعني تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم، قالوا: إنه عليه السلام كان في علم التعبير في القمة ومن المعلوم أن الرؤى تأتي كظلام، ولها شفرة رمزية لا يقوم بحلها إلا من وهبه الله قدرة على ذلك، فهي ليست علماً له قواعده وأصوله لأنها الهامات من الله سبحانه وتعالى. والثاني: تأويل الأحاديث في كتب الله تعالى والأخبار المروية عن الأنبياء المتقدمين كما أن الواحد في زماننا يشتغل بتفسير القرآن وتأويله، وتأويل الأحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

وثالثها: قوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ ٢٩واعلم أن من فسر الاجتباء بالنبوة لا يمكنه أن يفسر إتمام النعمة ههنا بالنبوة أيضا وإلا لزم التكرار، بل يفسر إتمام النعمة ههنا بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة. أما سعادات الدنيا فالإكثار من الأولاد والخدم والإتباع والتوسع في المال والجاه والحشم وإجلاله في قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد. وأما سعادات الآخرة: فالعلوم الكثيرة والأخلاق الفاضلة والاستغراق في معرفة الله تعالى. وأما من فسر الاجتباء بنيل الدرجات العالية، فهاهنا يفسر إتمام النعمة بالنبوة، ويتأكد هذا بأمور:

الأول: أن إتمام النعمة عبارة عما به تصير النعمة تامة كاملة خالية من جهات النقصان وما ذاك في حق البشر إلا بالنبوة، فإن جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقص بالنسبة إلى كمال النبوة، فالكمال المطلق والتمام المطلق في حق البشر ليس إلا النبوة.

٢٨- يوسف: ٦

٢٩- يوسف: ٦

والثاني: قوله تعالى: ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾٣٠ كما أتمها على أبويك من قبل(إبراهيم وإسحاق) ومعلوم أن النعمة التامة التي بها حصل امتياز إبراهيم وإسحاق عن سائر البشر ليس إلا النبوة فوجب أن يكون المراد بإتمام النعمة هو النبوة واعلم أنا لما فسرنا هذه الآية بالنبوة لزم الحكم بأن أولاد يعقوب كأنهم كانوا أنبياء وذلك لأنه قال: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾٣١ وهذا يقتضي حصول تمام النعمة لآل يعقوب، فلما كان المراد من إتمام النعمة هو النبوة لزم حصولها لآل يعقوب ترك العمل به في حق من عدا أبناءه فوجب أن لا يبقى معمولاً به في حق أولاده. وأيضا أن يوسف عليه السلام قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾٣٢ وكان تأويله أحد عشر نفساً لهم فضل وكمال، ويستضيء بعلمهم ودينهم أهل الأرض، لأنه لا شيء أضوأ من الكواكب وبها يهتدى، وذلك يقتضي أن يكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلاً فإن قيل كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه في حق يوسف عليه السلام؟ قلنا: ذلك وقع قبل النبوة، وعندنا العصمة إنما تعتبر في وقت النبوة فإن قيل هذه البشارات التي ذكرها يعقوب عليه السلام هل كان قاطعاً بصحتها أم لا؟ فإن كان قاطعاً بصحتها، فكيف حزن على يوسف عليه السلام، وكيف جاز أن يشتبه عليه أن الذئب أكله، وكيف خاف عليه من إخوته أن يهلكوه، وكيف قال لأخوته وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون، مع علمه بأنه سبحانه سيجتبيه ويجعله رسولا، فأما إذا قلنا إنه عليه السلام ما كان عالماً بصحة هذه الأحوال، فكيف قطع بها؟ وكيف حكم بوقوعها حكماً جازماً من غير تردد يقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره لهذا السؤال: قلنا: لا يبعد أن يكون قوله (وكذلك يجتبيك ربك) مشروطاً بألا يكيدوه، لأن ذكر ذلك قد تقدم. وأيضا فبتقدير أن يقال: إنه عليه السلام كان قاطعاً بأن يوسف عليه السلام سيصل إلى هذه المناصب إلا أنه لا يمتنع أن يقع في المضايق الشديدة ثم يتخلص منها ويصل إلى تلك المناصب، فكان خوفه لهذا السبب ويكون معنى قوله: (وأخاف أن يأكله الذئب) الزجر عن التهاون في حفظه، وإن كان يعلم أن الذئب لا يصل إليه وأنا أقول قولا آخر أن سبب حزنه عليه طوال هذه المدة هو ندمه الشديد كيف سلّمه لإخوته وهو صغير وهو يعلم كيد إخوته إن علموا بهذه الرؤيا،

٣٠- يوسف:٦
٣١- يوسف: ٦
٣٢- يوسف:٤

ويعلم أيضا أن إخوته يضمرون له الحقد لأنه يحبه أكثر منهم والندم هو أشد أنواع البلاء فهو يحفر في القلب ويعمل به كما يعمل الدود في اللحم المنتن وفي قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾٣٣ نستشف العبرة من كل ما حدث ليوسف الذي كاد له أخوته ليتخلصوا منه، لكن كيدهم انقلب لصالح يوسف فكل يوم من أيام تلك القصة هناك آية، وإن كل القصة بكل تفاصيلها وأحداثها آية عجيبة ويقول الحق سبحانه في آخر هذه الآية أن القصة (آيات للسائلين) والسائلون هنا إمّا من المشركين الذين حرضهم اليهود كما مرّ سابقاً، وإمّا من المسلمين الذين يطلبون العبر من الأمم السابقة، وجاء الوحي لينزل على النبي الأميّ صلى الله عليه وسلم بتلك السورة لأداء الرفيع المعجز ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾٣٤ ومن المعلوم أن الأخوة قد تكون أشقاء من أب وأم وقد يكونون أخوة لأب دون الأم، وقد يكونون أخوة لأم دون الأب وكان عدد أبناء يعقوب عليه السلام اثني عشر ولداً: سبعة من واحدة أمّ، وأربعة من اثنتين هما: زلفى وبلهه واثنان من راحيل هما: يوسف، وأخوه بنيامين وكانا صغيرين عندما ماتت أمهما راحيل في نفاس بنيامين ذكر ذلك القرطبي في تفسيره ولم يعد لهم إلا الأب الذي أحسن بضرورة أن يجتمع فيه تجاههما حنان الأب وحنان الأم، ولأنهما صغيران نجد الأب يحنو عليهما بما أودعه الله في قلبه من قدرة على الرعاية وهذا أمر لا دخل ليعقوب فيه، بل هي مسألة إلهية أودعها الله في القلوب بدون اختيار، ويودعها الله سبحانه وتعالى حتى في قلوب الحيوانات. وقد شاء سبحانه وتعالى أن يجعل الحنان على قدر الحاجة فالقطة على سبيل المثال: إن اقترب أحد من صغارها المولودين حديثاً تهجم على هذا الذي اقترب من صغارها ولذلك نجد العربي القديم قد أجاب على من سأله أي أبنائك أحبُّ إليك؟ فقال: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يعود، والمريض حتى يشفى، وهذه مسألة نراها في حياتنا اليومية فنجد امرأة لها ولدان، واحد أكرمه الله بسعة الرزق ويقوم بكل أمورها واحتياجاتها والآخر يعيش على الكفاف٣٥ أو على مساعدة أخيه له، ونجد قلبها دائماً مع الضعيف ـ ولذلك نقول: إن الحبّ مسألة عاطفية لا تخضع للتقنين ولا تكليف بها،

٣٣ـ يوسف: ٧

٣٤ـ يوسف: ٨

٣٥ـ الكفاف: أي ليس في نفقته فضل إنما عنده ما يكفه عن الناس والكفاف أيضا من الرزق القوت وهوما كف عن الناس أي أغنى فهولا يفضل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة إليه (لسان العرب)

فالحب والبغض انفعالات طبيعية[٣٦]، فاحبب من شئت وابغضْ من شئت، ولكن إياك أن تظلم الناس لمن أحببت، أو تظلم من أبغضت اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣٧] وهناك حب العقل وحب العاطفة فحب العقل: هو أن تبصر الأمر النافع وتفعله مثلما تأخذ الدواء المر وأنت تفعل ذلك بحب عقلي، رغبة منك في أن يأذن الله تعالى بالشفاء والمسلم يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعقله، لأنه يعلم أنه لولا مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرف حلاوة الإيمان وقد يتسامى[٣٨] المسلم في حب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يصير حب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قلبه حباً عاطفياً وكان على أخوة يوسف أن ينتبهوا إلى أن حب والدهم ليوسف وأخيه هو انفعال طبيعي لا يؤاخذ به الأب، لأن ظروف الولدين حتّمت عليه أن يحبهما مثل هذا الحب ثم إن من الأمور المعلومة أن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد، ويورث الآفات، فإن كان يعقوب عليه السلام عالماً بذلك فَلِمَ أقدم على هذا التفضيل والجواب: أنه عليه السلام ما فضلهما على سائر الأولاد إلا في المحبة، والمحبة ليست في وسع البشر فكان معذوراً فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم. إنّ أولاد يعقوب عليه السلام إن كانوا قد آمنوا بكونه رسولاً لاحقّاً من عند الله تعالى فكيف اعترضوا عليه، وكيف زيفوا طريقته وطعنوا في فعله، وإن كانوا مكذبين لنبوته، فهذا يوجب كفرهم.

والجواب: أنهم كانوا مؤمنين بنبوة أبيهم مقرين بكونه رسولاً حقا من عند الله تعالى إلا أنهم لعلهم جوزوا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يفعلوا أفعالاً مخصوصة بمجرد الاجتهاد، ثم إن اجتهادهم أدى إلى تخطئة أبيهم في ذلك الاجتهاد، وذلك لأنهم كانوا يقولون هما صبيان ما بلغا العقل الكامل، ونحن متقدمون عليهما في السن والعقل والكفاية والمنفقة ويقولون (ونحن عصبة)[٣٩] وهم الذين يقومون بالمصالح وبقضاء الحاجات، وقد تقاعد أبوهم وترك لهم إدارة أعمال العائلة.

٣٦- الطبع والطبيعة: الخليقة والسجية التي جبل عليها الإنسان (لسان العرب)

٣٧- المائدة:٨

٣٨- السمو: الارتفاع والعلو بسما الشيء يسمو سموا: ارتفع. وتساموا: تباروا، وتساميها: تباريها وتفاخرها. والتسامي: الرفعة والارتقاء (لسان العرب)

٣٩- والعصبة من عدد عشرة فما فوق، والعصبة أيضا هم المتعصبون لبعضهم البعض وقالوا: ما دمنا نقوم بمصالح العائلة فكان من الواجب أن يخصنا أبونا بالحب، وإصراره على تقديم يوسف علينا يخالف هذا الدليل

وأما يعقوب عليه السلام فلعله كان يقول: زيادة المحبة ليست في الوسع والطاقة فليس لله علي فيه تكليف وأما تخصيصهما بمزيد من البر فيحتمل أنه كان لوجود عدة أسباب أحدها: أن أمهما ماتت وهما صغيران.

وثانيها: لأنه كان يرى في يوسف من آثار الرشد والنجابة ما لم يجده في سائر أولاده.

وثالثها: لعله عليه السلام وإن كان صغيراً إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخدم أشرف وأعلى مما كان يصدر من سائر الأولاد والحاصل أن هذه المسألة كانت اجتهادية، وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة، فلا يلزم وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين في دين الآخر أوفي عرضه ثم إنهم وصلوا إلى نتيجة غير منطقية (قالوا: إن أبانا لفي ضلال مبين) نسبوا أباهم إلى الضلال المبين، وذلك مبالغة في الذم والطعن ومن بالغ في الطعن في الرسول كفر لاسيما إذا كان الطاعن ولداً فإنّ حقّ الأبوة يوجب مزيداً من التعظيم يفهم بعض الناس كلمة "ضلال" هنا بالمعنى الواسع لها نقول: لا، لأن هناك ضَلالاً مقصوداً، وهو أن يعرف طريق الحق ويذهب إلى الباطل، وهذا ضلال مذموم وهناك ضلال غير مقصود، مثل ضلال رجل يمشي فيسلك طرقا لا يعرفها فيضل عن مقصده، ومثل من ينسى شيئاً من الحق وسبحانه القائل: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾٤٠ وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾٤١ والمراد الضلال هنا، الضلال عن رعاية المصالح في الدنيا لا البعد عن طريق الرشد والصواب إذن فالضلال المذموم هو أن تعرف الطريق الحق وتذهب إلى الضلال وهنا يسأل سائل إن قولهم (ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا) محض الحسد، والحسد من أمهات الكبائر، لاسيما وقد أقدموا على الكذب بسبب ذلك الحسد، وعلى تضييع الأخ الصالح وإلقائه في ذل العبودية وإبعاده عن الأب المشفق، وأبقوا أباهم في الحزن وأمّا قبلها فذلك غير واجب والله أعلم وقوله تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾٤٢

٤٠- البقرة:٢٨٢
٤١- الضُّحى:٧
٤٢- يوسف:٩

واعلم أنه لما قوي الحسد وبلغ النهاية قالوا: لابد من إبعاد يوسف عن أبيه وذلك لا يحصل إلا بأحد طريقين القتل أو التغريب إلى أرض يحصل بها اليأس من اجتماعه مع أبيه ولا وجه في الشر يبلغه الحاسد أعظم من ذلك ثم ذكروا العلة فيه وهي (يخلو لكم وجه أبيكم) والمعنى أن يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه فإذا فقده أقبل علينا بالميل والمحبة وحينما أرادوا أن يطرحوه أرضاً ترددوا واستبدلوا ذلك بإلقائه في الجب لعل أن يلتقطه بعض السيارة، فقالوا: (وألقوه في غيابة[٤٣] الجب يلتقطه بعض السيارة) وهذا يدل على أنهم تنزلوا عن الانتقام الشديد بسبب الغيرة بل إنهم فكروا في نجاته وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه وتعالى ولا تقصص رؤياك على إخوتك باختصار: ﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾[٤٤] والكيد احتيال مستور لمن لا تقوى على مجابهته ولا يكيد إلا الضعيف لأن القوي يقدر على المواجهة ولذلك يقال: (إن كيد النساء عظيم لأن ضعفهن أعظم) ويذيل الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٤٥] وهذه العداوة معروفة لنا تماما لأنه خرج من الجنة ملعوناً عكس آدم الذي قبل الله توبته، وقد أقسم الشيطان بعزة الله ليغوين الكل واستثنى عباد الله المخلصين ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم: (لقد أعانني الله على شيطاني فأسلم) أخرجه أحمد في مسنده برقم ١\٣٨٥ عن عبد الله بن مسعود وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ﴾[٤٦] معناه أنه علموا أن ذلك الذي عزموا عليه من الكبائر فقالوا: إذا فعلنا ذلك تبنا إلى الله ونصير من القوم الصالحين علماً أنه ليس المقصود ها هنا صلاح الدين بل المعنى يصلح شأنكم عند أبيكم ويصير أبوكم محباً لكم مشتغلاً بشأنكم ثم بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾[٤٧]

٤٣- غاب الشيء يغيب غيباً استتر عن العين أوعن علم الإنسان في المعنوي، (القاموس القويم ٢\٦٤، ٦٥)
٤٤- يوسف: ٥
٤٥- يوسف: ٥
٤٦- يوسف: ٩
٤٧- يوسف: ١٠

وهكذا نرى التخفيف في الشر حين يرفض واحد منهم القتل واستبدله بالإخفاء في إلقائه في الجب، ولم يحدد الحق سبحانه وتعالى لنا اسم القائل حتى يعصمهم جميعاً من سوء الظن بهم واختلفوا في ذلك الجب فقال قتادة: هو بئر في بيت المقدس وقال وهب: هو بأرض الأردن وقال مقاتل: هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام وإنما عينوا ذلك الجب للعلة التي ذكرها وهي قولهم يلتقطه بعض السيارة[٤٨] وذلك لأن تلك البئر كانت معروفة وكانوا يردون عليها كثيراً وكان يعلم أنه إذا طرح فيها يكون إلى السلامة أقرب لأن السيارة إذا جازوا وردوها وإذا وردوها شاهدوا ذلك الإنسان فيها وإذا شاهدوه أخرجوه وذهبوا به فكان إلقاؤه فيها أبعد عن الهلاك وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾٤٩ فيه إشارة إلى أن الأولى ألا تفعلوا شيئاً من ذلك وأما إن كان ولا بد فاقتصروا على هذا القدر ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾٥٠يعيّن الأولى ألا تفعلوا ذلك ويقول تعالى بعد ذلك ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾٥١ وقائل هذه الكلمات في هذه الآية هو واحد من أخوة يوسف وأمَّن بقية الإخوة على كلامه وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾٥٢ يدل على أنه كان هناك محاولات سابقة منهم في ذلك ولم يوافقهم الأب وقوله تعالى: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾٥٣ يعني أنهم سوف ينتبهون له ولن يحدث له ضرر أو شر وسيعطونه كل اهتمام فلا داعي أن يخاف عليه الأب وقوله تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾٥٤ أنهم كانوا يخرجون للرعي والعمل لذلك كان يجب أن يأتوا بعلة ليأذن لهم أبوهم بخروج يوسف معهم ويوسف في أوان الطفولة، واللعب بالنسبة له أمر محبب ومسموح به لأنه ما زال تحت سن التكليف، واللعب هو الشغل المباح لقصد انشراح

٤٨- السيارة الكثير السير والسيارة الجماعة السائرة المسافرة، قال تعالى وقوله للمسافرين (وجاءت سيارة متاعا لكم وللسيارة) يوسف ١٩ ٩٦ المائدة (القاموس القويم)(١\٣٤٠)
٤٩- يوسف: ١٠
٥٠- النحل:١٢٦
٥١- يوسف:١١
٥٢- يوسف:١١
٥٣- يوسف:١١
٥٤- يوسف:١٢

النفس٥٥ ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾٥٦ وكلام الأب هنا لابد أن يغيظهم فهو دليل المحبة الفائقة إلى الدرجة التي يخاف فيها من فراق يوسف لقلة صبره عنه وشدة رعايته له ثم جاء لهم بالحكاية الأخرى وهي: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾٥٧ قال: بعض الناس. لقد علمهم يعقوب الكذبة ولولا ذلك ما عرفوا أن يكذبوها ونلاحظ أن يعقوب جعل للأخوة لحظا، فلم يقل أخاف أن يأكله الذئب وأنتم قاعدون بل قال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾٥٨ قال ابن كثير في تفسيره (٢\٤٧٠): أخذوا من فمه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه وقد أورد السيوطي في (الدر المنثور) (٤\٥١٠) آثارا في هذا الشأن فقال: أخرج أبو الشيخ وابن مردويه السلفي في الطيوريات عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تلقنوا الناس فيكذبوا فإن بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس فلما لقنهم أبوهم كذبوا فقالوا: أكله الذئب وسبب تلقينه لهم هذا القول أنه رأى في النوم أن الذئب هجم على يوسف فكان يحذره من هذا ومعنى قوله سبحانه" وأنتم عنه غافلون" هو خوف يعقوب عليه السلام من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم لقلة اهتمامهم به وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾٥٩

ـ وهنا يكشف لنا الحق سبحانه وتعالى محاولاتهم لطمأنة أبيهم، كي يأذن في خروج يوسف معهم، ولهذا استنكروا أن يأكله الذئب وهم محيطون به كعصبة، وأعلنوا أنه إن حدث ذلك فهم سيخسرون كرامتهم أمام أنفسهم وأمام قومهم، وهم لا يقبلون على أنفسهم هذا الهوان قال القرطبي في تفسيره (٤\٣٤٦٢) قوله" إنا إذا لخاسرون" أي إنا لخاسرون في حفظ أغنامنا أي: إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا" نلاحظ أن يعقوب عليه السلام اعتذر بعذرين (الحزن، وخوفه عليه من الذئب) فلم يجيبوا عن أحدهما دون الآخر فلماذا لم يجيبوا عن العذر الأول؟

٥٥-رتع يرتع: أكل وشرب كما يشاء في خصب وسعة وأصله أكل البهائم ويستعار للإنسان إذا أطلق لشهوات بطنه العنان (القاموس القويم ١\٢٥٤)

٥٦- يوسف:١٣

٥٧- يوسف:١٣

٥٨- يوسف:١٣

٥٩- يوسف:١٤

الجواب: قال الرازي: أن حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الأول وهو شدة حبه له فلما سمعوا ذكر ذلك المعنى تغافلوا عنه ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾٦٠ وقول الحق: ﴿وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ يدلنا على أن تلك المسألة أخذت منهم مناقشة، فيها أخذ ورد إلى أن استقروا عليها.

- وألهم الحق سبحانه وتعالى يوسف عليه السلام بما سوف يفعلونه، والوحي كما نعلم إعلام بخفاء وأنا أقول: إن الإلهام هو من الله سبحانه وقد يكون يقظة ومناما "ذكر القرطبي في هذا أن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً ليحفظنه وسلمه إلى "روبيل" وقال: يا روبيل إنه صغير وتعلم يا بني شفقتي عليه فإن جاع فأطعمه وإن عطش فاسقه وإن أعيا فاحمله ثم عجّل برده إليّ قال: فأخذوا يحملونه على أكتافهم، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر (تفسير القرطبي) (٤\٣٤٦٢) وسوف يأتي في القصة أن يوسف عليه السلام بعد أن تولّى الوزارة في مصر ودخلوا عليه أمسك بقدح ونقر عليه بأصابعه وقال لهم: اسمعوا ما يقوله القدح: إنه يقول: إنَّ لكم أخا وقد فعلتم به كذا وكذا.

- وبعض المفسرين قال: إنّ الحقّ سبحانه أوحى له ولم يلحظ إخوته هذا الوحي ونقول إنّ الوحي إعلام بخفاء ولا يمكن أن يشعر به غير الموحى إليه وعلى ذلك نرى أنهم لم يعلموا هذا الأمر إلا بعد أن تولى يوسف مقاليد الوزارة في مصر، بل إنهم لم يعرفوا أن يوسف أخوهم، لأنهم قالوا: له لحظتها ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾٦١والمقصود بالوحي في هذه الآية: التي نحن بصددها هو إيناس الوحشة، وهو وارد إلهي لا يرده وارد الشيطان والإلهام وارد بالنسبة لمن هم غير أنبياء، مثلما كان الأمر الذي حدث مع أم موسى حين أوحى لها الله أن تلقيه في اليم أخرجه بن جرير الطبري وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: "لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون جيء بالصّواع فوضعه على يده ثم نقره فطنّ فقال: إنه ليخبرني أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف،

٦٠- يوسف:١٥

٦١- يوسف:٧٧

يدين دينكم وأنكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب فأتيتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله وجئتم على قميصه بدم كذب فقال بعضهم لبعض: إن هذا اللجام ليخبره خبركم (أورده السيوطي في الدر المنثور ٤\٥١١) قال السّدّي: إن يوسف عليه السلام لما برز مع إخوته أظهروا له العداوة الشديدة، وجعل هذا الأخ يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ولا يرى فيهم رحيماً فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يقول: يا يعقوب لو تعلم ما يصنع بابنك وقال يهودا: أليس قد أعطيتموني موثقاً ألا تقتلوه فانطلقوا به إلى الجب يدلونه فيه وهو متعلق بشفير البئر فنزعوا قميصه وكان غرضهم أن يلطخوه بالدم ويعرضوه على يعقوب فقال لهم: ردوا عليّ قميصي لأتوارى به فرفضوا وأنزلوه في البئر فتعلق بصخرة وأخذ يدعو الله أن يفرج عنه (انتهى باختصار فيه) والوارد الإلهي لا نجد له معارضة في النفس البشرية، وقد أوحى الله ليوسف ما يؤنس وحشته حين ألقاه إخوته في الجب الذي ابتعد فيه عن حنان أبيه وأنسه بأخيه، ومفارقته لبلده التي درج فيها وأنسه بالبيئة التي اعتاد عليها فكان لابد أن تعطيه السماء دليلاً على أن ما حدث له ليس جفوة لك يا يوسف، لكنه إعداد لك لتقابل أمراً أهم من الذي كنت فيه وأن غرماءك وهم أخوتك سوف يضطرون لدق بابك ذات يوم يطلبون عونك، ويطلبون منك أقواتهم، وستعرفهم أنت دون أن يعرفوك. هذا من جهة يوسف، وجهة الجبّ الذي ألقوه فيه، وبقي أن تعالج القصة أمر الإخوة مع الأب، فيقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾٦٢ وجاءوا أباهم وقت العشاء لأن العشاء أخفى للوجه من النهار وأستر للفضائح وقالوا لبعضهم البعض: حين ندخل على أبينا فلن تكشفنا انفعالاتنا وقوله "يبكون".

ـ والبكاء انفعال طبيعي غريزي فطريّ، ليس للإنسان فيه مجال اختيار ومن يريد أن يفتعله فهو يتباكى بأن يفرك عينيه أو يأتي ببعض ريقه ويقربه من عينيه ولا يستر ذلك إلا أن يكون الضوء خافتا لذلك جاؤوا أباهم عشاء يمثلون البكاء فعند ذلك فزع يعقوب وقال: هل أصابكم في غنمكم شيء قالوا: لا قال: فما فعل يوسف قالوا: "ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب" فبكى وصاح وقال: أين القميص؟ فطرحوه على وجهه حتى تخضب وجهه من دم القميص ثم قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾٦٣

٦٢- يوسف:١٦

٦٣- يوسف:١٧

كلمة نستبق: استبقا أي تباريا ليسبق كل منهما الآخر واستبقا الشيء تباريا في الجري نحوه للوصول إليه وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ أي ذهبنا نتسابق وتركناه عند أغراضنا وفي هذا إخلال بشرط التعاقد مع الأب الذي أذن بخروج يوسف بعد أن قالوا: " أرسله معنا غداً يرتع ويلعب" وقالوا: "وإنا له لناصحون" وقالوا: "وإنا له لحافظون" فهل أخذتموه معكم ليرتع ويلعب ويأكل من ثمار الأشجار والفاكهة وتحفظونه أم ليحفظ لكم متاعكم وأنتم تستبقون وهذا أول الكذب الذي كذبوه، وهذه أول مخالفة لشرط إذن والده له بالخروج معهم ولأن المريب يكاد يقول خذوني نجدهم قد قالوا: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾٦٤ أو أنهم قالوا ذلك لأنهم يعلمون أن والدهم لن يصدقهم مهما قالوا.

- وقولهم "ولو كنا صادقين" هنا يتهمون أباهم أنه متحدّ لهم حتى ولو كانوا صادقين وهم يعلمون أنهم غير صادقين ولكن جاؤوا بكلمة الصدق ليداروا كذبهم ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾٦٥ وعندما جاؤوا بقميصه قال أبوهم: إنّ هذا الذئب رحيم أكل لحم ولدي ولم يمزق قميصه وكأنه قد عرف أنّ هناك مؤامرة سيكشفها الله له. ونقل القرطبي في تفسيره (٤\٣٤٧١) "أن يعقوب لما تأمل القميص فلم يجد فيه خرقاً ولا أثراً استدل بذلك على كذبهم وقال لهم: متى كان هذا الذئب حكيما يأكل يوسف ولا يخرق القميص. قاله ابن عباس وغيره" وأما قوله تعالى "وجاؤوا على قميصه بدم كذب" وكأن القميص كان معهم ووضعوا عليه دماً مكذوباً لأن الدم لا يكذب إنما كذب من وضع دم شاة على القميص وحين انكشف أمرهم أمام أبيهم، أشار أحدهم خفية للباقين وقال لهم همساً: قولوا لأبيكم إن قد خرجوا عليه وقتلوه فسمع يعقوب الهمس فقال: اللصوص أحوج لقميصه من دمه وهذا ما تقوله كتب السير. وهذا ما يؤكد فراسته عليه السلام.

٦٤- يوسف:١٧

٦٥- يوسف:١٨

ويأتي هنا الحق سبحانه ليقول بما جاء على لسان يعقوب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٦٦] قوله (بل سولت) هنا بمعنى يسّرت وسهلت وما دامت قد سولت لكم أنفسكم هذا الأمر فسوف أستقبله بما يليق بهذا الوضع وهو الصبر فقال: "فصبر جميل" وأما الصبر الجميل، فقد ذكر الرازي في تفسيره عن الحسن أنه سئِّل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: "فصبر جميل" فقال: "صبر لا شكوى فيه فمن بث شكواه لم يصبر أي تكلم بمصيبته لم يصبر ويدل عليه من القرآن قوله تعالى: "إنما أشكو بثي وحزني إلى الله" قال سفيان الثوري: من الصبر أن لا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك ولا تزكي نفسك وقوله: "والله المستعان على ما تصفون" أن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع وهي قوية والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا فكأنه وقعت المحاربة بين الصنفين فإذا لم تحصل إعانة الله لم تحصل الغلبة فقوله (صبر جميل) يجري مجرى قوله (إياك نعبد) وقوله "والله المستعان على ما تصفون" يجري مجرى قوله (وإياك نستعين) قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[٦٧] والمقصود بالسيارة هم القوم المحترفون للسير مثل من كانوا يرحلون في رحلة الشتاء والصيف بهدف التجارة وجلب البضائع وكانت السيارة لا تنتقل بكامل أفرادها إلى البئر بل يذهب واحد منهم إلى البئر ليأتي لهم بالمياه ويسمى الوارد، وذهب هذا الوارد إلى البئر ليحضر لبقية السيارة الماء وألقى دلوه في البئر ويسمى حبل الدلو الرّشاء وحين نزل الدلو إلى مستوى يوسف عليه السلام تعلق يوسف بالحبل فأحسّ الوارد بثقل ما حمله الرشاء ونظر إلى أسفل فوجد غلاماً يتعلق بالدلو فنادى يا بشرى هذا غلام قال القرطبي في تفسيره (٤\ ٣٤٧٥) في معناه قولان أحدهما: اسم الغلام (الوارد)

الثاني: يا أيتها البشرى هذا حينك وأوانك قال: قتادة بشّر أصحابه بأنه وجد عبداً قلت (أي من البشرى والبشارة) قال القرطبي: (عن قول قتادة) وهذا أصح (انتهى باختصار)

٦٦- يوسف:١٨

٦٧- يوسف:١٩

ـ فلم يحمل الدلو ماء فقط بل حمل غلاماً أيضا ثم قال سبحانه: "وأسروه بضاعة" أي أنهم أخفوه وعاملوه كأنه بضاعة ولم يتركوه يمشي بجانبهم خشية أن يكون عبداً آبقا (العبد الآبق أي الهارب من سيده) ويبحث عنه سيده، وهم يريدون بيعه ويذيل الحق سبحانه الآية بقوله "والله أعلم بما يعملون"١٩ . وهذا قول يعود على من أسرّوه بضاعة وهم الذين عرضوه للبيع. ثم قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾٦٨

ـ ونعلم أنهم لم يشتروه بل عثروا عليه، ونعلم أن كلمة شراء تدل على البيع أي: أنهم باعوه بثمن بخس: أي بثمن زهيد وكانت العبيد أيامها مقوّمة بالنقود. ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح الأمر أكثر فقال: "دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين" قال الرازي: قيل تعدّ عدّا ولا توزن بسبب قلتها أما إذا كانت كثيرة وثمينة فتوزن وزنا قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت عشرين درهماً وقوله سبحانه وتعالى "وكانوا فيه من الزاهدين" ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال: زهد فلان في كذا إذا لم يرغب فيه وأصله القلة.

ـ لماذا كانوا فيه من الزاهدين أجاب الرازي عن ذلك لأنهم التقطوه والملتقط للشيء لا يبالي بأي شيء يبيعه فلا جرم باعوه بأبخس الأثمان ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾٦٩ وكان لشراء يوسف سبب فهو قد اشتراه لامرأته ليقوم بخدمتها وكانت لا تنجب وتكثر في الإلحاح عليه في طلب العلاج وتقول أغلب السّير إن من اشتراه وهو العزيز كان ضعيفا من ناحية رغبته في النساء وقوله "أكرمي مثواه" يعني أن تعتني بالمكان الذي سيقيم فيه وبطبيعة الحال فهذا القول يقتضي أن تعتني بالولد نفسه رجاء أن ينتفع به الرجل وزوجته وقوله "أن نتخذه ولداً" نعلم أن العزيز وامرأته كانا لا يملكان أولادا فتبنّوه ولداً لهم

٦٩ـ يوسف:٢١

٦٨ـ يوسف:٢٠

ويقول الحق سبحانه وتعالى في نفس الآية: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٧٠]

- وقد بدأ التمكين في الأرض من لحظة دخوله إلى بيت العزيز ليحيا حياة طيبة وليعلّمه الله تأويل الحديث بأن يهبه القدرة على تفسير الرؤى والأحلام وليغلب الله على أمره ولو نظر إخوته إلى ما آل إليه يوسف فسيعرفون أنّ مرادهم قد خاب وأنّ مراد الله قد غلب بإكرام يوسف وهم لو علموا ذلك لضنّوا عليه بالإلقاء في الجب وهذا شأن الظالمين جميعاً ولذلك قال الشعراوي: إنّ الظالم لو علم ما أعدّه الله للمظلوم لضنّ عليه بالظلم وساعة يقول الحق سبحانه وتعالى "والله غالب على أمره" فهذا قول نافذ لأنه وحده القادر على أن يقول للشيء كن فيكون ولا يوجد إله غيره ليردّ على مراده.

لطيفة: نستوحي من الآية السابقة التي جاء فيها تبني العزيز ليوسف كيف ينشأ الفساد في البيوت التي تتبنّى طفلا لكنهم لا يحسبون حساب المسألة حين يبلغ هذا الطفل مبلغ الرجال وقد تعوّد هذا الطفل المتبنّى أن تحمله ربة البيت وتقبّله وتغدق عليه من التدليل ما يصعب عليها أن تمتنع عنه ولأن الطفل يكبر انسيابياً فقد يقع المحظور[٧١] وتدخل في متاهة الخطيئة. ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٧٢] ولما بلغ أشده: أي بلغ إلى غايته في النضج والاستواء، ومن كلمة بلغ يتضح لنا أن مصطلح البلوغ، يعني أن تكليف الإنسان يبدأ فور أن يبلغ أشده ويصير في قدرته أن ينجب إنساناً مثله، وحين يبلغ إنسان مثل يوسف أشده وهو قد عاش في بيت يمتلئ بالخيرات فهذا البلوغ إن لم يكن مصوناً ومحروساً بالحكمة والعلم ستتولد فيه رعونة[٧٣] ولهذا فقد حرسه الحق بالحكمة والعلم. قال أبو عبيدة تقول العرب بلغ أشده إذا انتهى منتهاه في شبابه وقوته قبل أن يأخذ في النقصان فروى ابن جرير عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ولما بلغ أشده قال: ثلاثا وثلاثين سنة وهذه الرواية شديدة الانطباق على القوانين الطبية،

٧٠- يوسف:٢١

٧١- المحظور: الممنوع

٧٢- يوسف:٢٢

٧٣- الرعونة: الحمق والاسترخاء (لسان العرب)

وذلك لأن الأطباء قالوا: إن الإنسان يحدث في أول الأمر ويتزايد في كل يوم شيئاً فشيئاً إلى أن ينتهي إلى غاية الكمال ثم يأخذ في التراجع والانتقاص إلى ألا يبقى منه شيء فكانت حالته شبيهة بحالة القمر فإنه يظهر هلالاً ضعيفاً ثم لا يزال يزداد إلى أن يصير بدراً تماماً ثم يتراجع إلى أن يصير إلى العدم والمحاق ومعنى الحكم: هو الفصل بين قضيتين متعارضتين متعاندتين حق وباطل، وما دام الله قد أعطاه الحكم فهو قادر على أن يفصل بين الصواب والخطأ وقد أعطاه الله العلم الذي يستطيع أن ينقله إلى الغير والذي سيكون منه تأويل الرؤى[٧٤] وغير ذلك من العلم الذي سوف يظهر حين يولى على خزانة مصر. إذن فهنا بلغ يوسف أشده وحرسه الله بالحكمة والعلم وفي تفسير الحكم والعلم أقوال:

الأول: الحكم والحكمة أصلها حبس النفس عن هواها ومنعها مما يشينها فالمراد من الحكم الحكمة العملية، والمراد من العلم الحكمة النظرية، وإنما قدم الحكمة العملية هنا على الحكمة النظرية لأن أصحاب الرياضيات يشتغلون بالحكمة العملية ثم يترقون منها إلى الحكمة النظرية، وأما أصحاب الأفكار العقلية والأنظار الروحانية فإنهم يصلون إلى الحكمة النظرية أولاً، ثم ينزلون منها إلى الحكمة العملية، وطريقة يوسف عليه السلام هو الأول لأنه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله عليه أبواب المكاشفات فلهذا السبب قال: (آتيناه حكماً وعلماً).

القول الثاني: الحكم هو النبوة، لأن النبي يكون حاكماً على الحق والعلم: العلم الديني.

القول الثالث: يحتمل أن يكون المراد من الحكم صيرورة نفسه المطمئنة حاكمة على نفسه الأمارة بالسوء مستعلية عليها قاهرة لها، ومتى صارت القوة الشهوانية والغضبية مقهورة ضعيفة فاضت الأنوار القدسية والأضواء الإلهية من عالم القدس على جوهر النفس ونجد هنا وجه النظم أن يقال: بيّن الله تعالى أن إخوته لما أساؤوا إليه ثم إنه صبر على تلك الشدائد والمحن مكنه الله تعالى، ثم لما بلغ أشده أتاه الله الحكم والعلم، والمقصود بيان أن جميع ما فاز به من النعم كان كالجزاء على صبره على تلك المحن ولذلك قال تعالى (وكذلك نجزي المحسنين) وهذا يدل على كل من أتى بالطاعات الحسنة التي أتى بها يوسف،

٧٤- الرؤى: جمع رؤيا وهوما تراه في منامك، ورأى بمعنى اعتقد وبمعنى عرف، ورأى في منامه رؤيا حلم، والرؤيا الحلم في المنام (القاموس القويم)

فإن الله يعطيه تلك المناصب، وهذا بعيد لاتفاق العلماء على أن النبوة غير مكتسبة ويقول الشعراوي: وكل إنسان يحسن الإقامة لما هو فيه يعطيه الله ثمرة هذا الحسن وهكذا نجد قول الحق سبحانه وتعالى (وكذلك نجزي المحسنين) لا ينطبق على يوسف وحده بل على كل من يحسن استقبال الله تعالى، لأن سبحانه ساعة يأتي بحكم من الأحكام وبعد ذلك يعمم الحكم، فهذا يعني أن هذا الحكم عاماً وليس بخاص ثم قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[٧٥] وساعة تسمع (راودته) فافهم أن الأمر فيه منازعة والمراودة مطالبة برفق ولين بستر ما تريده ممن تريده كأن الأمر سهلٌ اعلم أن يوسف عليه السلام كان في غاية الجمال والحسن، فلما رأته امرأة العزيز طمعت فيه، ويقال أيضا أن زوجها كان عاجزاً وغلقت الأبواب والسبب أن ذلك العمل لا يؤتى به إلا في المواضع المستورة لا سيما إذا كان حراماً ومع قيام الخوف الشديد وكلمة غلّقت الأبواب توضح المبالغة في الحدث أو لتكرار الحدث فهي قد أغلقت أكثر من باب، وامرأة العزيز قامت بأكثر من إغلاق لأكثر من باب فقصور العظماء بها أكثر من باب وأنت لا تدخل على العظيم من هؤلاء في بيته لتجده في استقبالك بعد أول باب بل يجتاز الإنسان أكثر من باب ليلقى العظيم الذي جاء ليقابله ومعنى غلق جعله مغلوقاً بحيث يصعب فتحه، ثم دعته إلى نفسها (وقالت: هيت لك) ومعنى هيت لك: هلم عند جميع أهل اللغة، أي أنها انتقلت من مرحلة المراودة إلى مرحلة الوضوح في طلب الفعل بأن قالت: تهيأت لك وكان رده (قال: معاذ الله) ٣٣ والمعاذ هو من تستعيذ به، وأنت لا تستعيذ بالله، إلا إذا خارت أسبابك عليه، فلم تجد معاذاً إلا الله تعالى، ولا أحد قادر أن يتصرف هكذا إلا من حرسه الله تعالى بما أعطاه من الحكمة والعلم وجعله قادرا على التمييز بين الحلال والحرام (قال: معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون) وأعطانا هذا القول معنيين اثنين:

الأول: أنه لم يوافق على طلبها بعد ما أوضحت له ما تريد .

والمعنى الثاني: أنه طلب المعونة من الله تعالى وهو سبحانه وتعالى من نجاه من كيد إخوته ونجاه من الجب، وهيأ له أفضل مكان في مصر ليحيا فيه، ومنحه العلم والحكمة مع بلوغه لأشده، وبعد كل هذا أيستقبل كل هذا الكرم بالمعصية؟ طبعاً لا أو أنه قال: (أحسن مثواي) ٣٣ليذكر امرأة العزيز بأن لها زوجاً فليست خالية وهذا الزوج قد طلب منها أن تكرم يوسف، وتختار له مكان إقامة يليق بابن، ولا يمكن أن يستقبل ذلك بالجحود والخيانة وهكذا يصبح قول يوسف (إنه ربي أحسن مثواي) ٣٣

٧٥-يوسف٢٤

قد يعود على الله سبحانه وتعالى، وقد يعود على عزيز مصر، وذلك ميزة أسلوب القرآن الكريم فهو يأتي بعبارة لكل مناطق الفهم ونجد أن يوسف عليه السلام ذكر في الجواب عن كلامها ثلاثة أشياء أحدها قوله:(معاذ الله) والثاني قوله تعالى: (إنه ربي أحسن مثواي) والثالث (إنه لا يفلح الظالمون) وهذا الترتيب في غاية الحسن، وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء لكثرة إنعامه وألطافه في حق العبد فقوله (معاذ الله) إشارة إلى أن حق الله تعالى يمنع من هذا العمل، وأيضاً حقوق الخلق واجبة الرعاية، فلما كان هذا الرجل قد أنعم في حقي يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالإساءة، وأيضا صون النفس عن الضرر واجب، وهذه اللذة لذة قليلة يتبعها خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة فالعقل يقتضي تركها والاحتراز عنها فقوله (إنه لا يفلح الظالمون) إن هذه الجوابات مرتبة على أحسن وجوه الترتيب ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) والهم: هو حديث النفس بالشيء إما أن يأتيه الإنسان. أو لايأتيه، من رحمة ربنا بخلقه أن من هم بسيئة وحدثته نفسه أن يفعلها ولم يفعلها لم تكتب له جاءت هنا العبارة في أمر المراودة التي كانت منها لأن الامتناع الذي كان منه، فأحد الاثنين امرأة العزيز يقول الله في حقها (ولقد همت به) (٢٤) سبق أن أعلن لنا الحق سبحانه وتعالى في الآية السابقة موقفها حين قالت: (هيت لك) وكذلك يبين موقف يوسف عليه السلام حين قال: (معاذ الله).

-عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت له سيئة) أخرجه مسلم وهنا يبين لنا أن نفسه قد حدثته أيضا وتساوى في الفعل، لكن يوسف حَدَثَ لَهُ أَنْ رأى برهان ربه. ويكون فهمنا للعبارة. ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها لأننا نعلم أن (لولا) حرف امتناع لوجود مثلما نقول: لولا زيد عندك لأتيتك ولقائل يقول: كيف غابت قضية الشرط في الإيجاد والامتناع من الذين يقولون أن الهم قد وجد منه، ولماذا لم يقل الحق لقد همت به ولم يهم بها، حتى نخرج من القضية الصعبة ويقول الشعراوي في تفسيره: لو قال الحق ذلك لما أعطانا هذا القول اللقطة المطلوبة لأن امرأة العزيز همت به لأن عندها نوازع العمل، وإن لم يقل لنا أنه قد هم بها لظننا أنه عنين[٧٧] أو خصاه موقف أنها سيدته فخارت قواه إذن لو قال الحق سبحانه وتعالى إنه لم يهم بها لكان المانع من الهم

٧٦- يوسف:٢٤

٧٧- والعنين: الذي لا يأتي النساء ولا يريدهن

إما أمر طبيعي فيه أو أمر طارئ لأنها سيدته فقد يمنعه الحياء عن الهم ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا أن يوسف عليه السلام كان طبيعيا وهو قد بلغ أشده ونضجه، ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها وهكذا لم يقم يوسف عليه السلام بما يتطلبه ذلك لنقص فيه ولا لأن الموقف كان مفاجأة ضيعت رجولته فجأةَ مثل ما يحدث لبعض الشباب في ليلة الزفاف حين لا يستطيع أن يقرب عروسه وتمر الأيام إلى أن يستعيد توازنه ويقرب عروسه إذن فبرهان ربه سابق على الهم لأن برهان ربه في قلبه وقد عرف يوسف برهان ربه من البداية والمراد بذلك البرهان ما قاله المحققون المثبتون للعصمة فقد فسروا رؤية البرهان بعدة تفسيرات.

الأول: أنه حجة الله تعالى بتحريم الزنا والعلم بما على الزاني من عقاب.

والثاني: أن الله تعالى طهر نفوس الأنبياء عليهم السلام عن الأخلاق الذميمة بل نقول إنه طهر نفوس المتصلين به عنها لما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٧٨] فالمراد برؤية البرهان هو حصول تلك الأخلاق وتذكير الأحوال الرادعة لهم عن الإقدام على المنكرات.

فالأولى: أن يوسف عليه السلام في ظاهر الأمر كان عبداً لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه إلى هذا الحد.

والثانية: أنهم شاهدوا أن يوسف عليه السلام كان يعدوا عدوا شديدا ليخرج، والرجل الطالب للمرأة لا يخرج من الدار على هذا الوجه.

والثالثة: أنهم رأوا أن المرأة زينت نفسها على أكمل وجه، وأما يوسف عليه السلام فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس فكان إلحاق هذه التهمة أو الفتنة بالمرأة أولى.

والرابعة: أنهم كانوا قد شاهدوا أحوال يوسف عليه السلام في المدة الطويلة فما رأوا عليه حالة تناسب إقدامه على مثل هذا الفعل المنكر وذلك أيضا مما يقوي الظن.

الخامسة: أن المرأة ما نسبته إلى طلب الفاحشة على سبيل التصريح بل ذكرت كلاماً مجملاً مبهماً، وأما يوسف عليه السلام فإنه صرح بالأمر ولو أنه كان متهما لما قدر على التصريح باللفظ الصريح فإن الخائن خائف.

٧٨- الأحزاب:٣٣

السادسة: قيل إن زوج المرأة كان عاجزاً وآثار طلب الشهوة في حق المرأة كانت متكاملة فإلحاق هذه الفتنة بها أولى، فلما حصلت هذه الأمارات الكثيرة الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة كان من المرأة استحيا الزوج وتوقف وسكت لعلمه بأن يوسف صادق والمرأة كاذبة، ثم إنه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلاً آخر يقوي تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه بريء عن الذنب وأن المرأة هي المذنبة وهو قوله تعالى: (قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) [يوسف : ٢٦]

وفي هذا الشاهد ثلاثة أقوال:

الأول: أنه كان لها ابن عم وكان رجلاً حكيما واتفق في ذلك الوقت أنه كان مع العزيز يريد أن يدخل عليها فقال: قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص إلا أنَّا لا ندري أيكما قدام صاحبه، فإن كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة والرجل كاذب، وإن كان من الخلف فالرجل صادق وأنت الكاذبة فلما نظروا إلى القميص ورأوا الشق من خلفه، قال ابن عمها (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) أي من عملكن ثم قال ليوسف: أعرض عن هذا واكتمه، والثالث: أنه رأى في سقف البيت مكتوبا (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً).

والرابع: أنها النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش ثم قال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[٧٩] اعلم أنه تعالى لما حكى عنها أنها (همت به) أتبعه بكيفية طلبها وهربه فقال: (واستبقا الباب) والمراد أنه هرب منها وحاول الخروج من الباب وعدت المرأة خلفه لتجذبه إلى نفسها، والاستباق طلب السبق إلى الشيء، ومعناه تبادرا إلى الباب يجتهد كل واحد منهما أن سبق صاحبه، فإن سبق يوسف فتح الباب وخرج، وإن سبقت المرأة

٧٩- يوسف:٢٩:٢٨:٢٧:٢٦:٢٥

أمسكت الباب لئلا يخرج واعلم أن يوسف عليه السلام سبقها إلى الباب وأراد الخروج والمرأة تعدو خلفه فلم تصل إلا إلى دبر القميص فقدته أي قطعته طولاً، وفي ذلك الوقت حضر زوجها وهو المراد من قوله (وألفيا سيدها لدى الباب) أي صادفا بعلها تقول المرأة لبعلها سيدي، ولم يقل في الآية سيدهما لأن يوسف عليه السلام ما كان مملوكا لذلك الرجل في الحقيقة، فعند ذلك خافت المرأة من التهمة فبادرت إلى أن رمت يوسف عليه السلام بالفعل القبيح، وقالت: (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم) والمعنى ظاهر. ونستنتج من الآية اللطائف التالية:

الأولى: المراد أن يسجن يوماً أو أقل على سبيل التخفيف. أما السجن الدائم فإنه لا يعبر عنه، بل يقال: يحب أن يجعل من المسجونين ألا ترى أنّ فرعون هكذا قال حين تهدد موسى عليه السلام في قوله: (لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين).

وثانيها: أنها لما شاهدت من يوسف عليه السلام أنه استعصم منها مع أنه كان في عنفوان شبابه وكمال القوة ونهاية الشهوة الجنسية عظم اعتقادها في طهارته ونزاهته بهذا الكذب على سبيل التصريح بل اكتفت بهذا التعريض، فانظر إلى تلك المرأة ما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب على سبيل التصريح بل اكتفت بهذا التعريض، وأن هؤلاء الحشوية يرمونه بعد قريب من أربعة آلاف سنة بهذا الذنب القبيح.

ورابعها: أن يوسف عليه السلام أراد أن يضربها ويدفعها عن نفسه، وكان بالنسبة إليها جارياً مجرى السوء فقولها: (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً) جارياً مجرى التعريض فلعلها بقلبها كانت تريد إقدامه على دفعها ومنعها وفي ظاهر الأمر كانت توهم أنه قصدني بما لا ينبغي واعلم أن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ولطخت عرض يوسف عليه السلام احتاج يوسف إلى إزالة هذه التهمة فقال: هي راودتني عن نفسي وأن يوسف عليه السلام ما هتك سترها في أول الأمر إلا أنه لما خاف على النفس وعلى العرض أظهر الأمر واعلم أن العلامات الكثيرة كانت دالة على أن يوسف عليه السلام هو الصادق. وقال لها: استغفري لذنبك، وهذا قول طائفة عظيمة من المفسرين.

والثاني: وهو أيضا منقول عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومعيد ابن جبير والضحاك: أن ذلك الشاهد كان صبيا أنطقه الله تعالى في المهد فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: تكلم في المهد أربعة صغار شاهد يوسف، وابن ماشطة فرعون، وعيسى ابن مريم، وصاحب جريج الراهب. قال الجبائي: والقول الأول أولى لأنه قال تعالى (وشهد شاهد من أهلها) وإنما قال: من أهلها ليكون أولى بالقبول.

الثالث: أن ذلك الشاهد هو القميص وقال مجاهد: الشاهد كونه قميصه ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[٨٠] وقال نسوة في المدينة، قال الكلبي: هن أربع امرأة ساقي العزيز، وامرأة خبازه، وامرأة صاحب سجنه، وامرأة صاحب دوابه، وزاد مقاتل وامرأة الحاجب. والأشبه أن تلك الواقعة شاعت في البلد واشتهرت وتحدث بها النساء قوله قد شغفها حباً والشغاف جلدة محيطة بالقلب، قوله (قد شغفها حباً) أي دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب، أو أن حبه أحاط بقلبها مثل إحاطة الشغاف في القلب، ومعنى إحاطة ذلك الحب بقلبها هو أن اشتغالها بحبه صار حجابا بينها وبين كل ما سوى هذه المحبة فلا تعقل سواه ولا يخطر ببالها إلا إياه ثم قال تعالى: (فلما سمعت بمكرهن) والمعنى أنها سمعت قولهن وسمي قولهن مكراً لوجوه:

الأول: أن النسوة إنما ذكرت ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر إلى وجهه لأنهن عرفن أنهن إذا قلنا ذلك عرضت زليخا يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن.

الثاني: أن امرأة العزيز أسرت إليهن بحبها ليوسف، وطلبت منهن كتمان هذا السر فلما أظهرن السر كان ذلك غدراً ومكراً ثم أنها لما سمعت أنهن يلمنها على تلك المحبة المفرطة أرادت إبداء عذرها فاتخذت مائدة ودعت جماعة من أكابرهن، واعتدت لهن متكأ، والمتكأ هو النمرق الذي يتكأ عليه وقيل المتكأ هو الطعام سمي الطعام متكأ على الاستعارة،

٨٠- يوسف:٣١

وقيل أترجا وهو قول وهب وأنواع الفاكهة يحتاج إلى أن يقطع بالسكين واعتدت لكل واحدة منهن مجلساً معيناً وآتت كل واحدة منهن سكيناً أي لأجل أكل الفاكهة أو لأجل قطع اللحم ثم إنها أمرت يوسف عليه السلام بأن يخرج إليهن ويعبر عليهن وأنه عليه السلام ما قدر على مخالفتها خوفاً منها فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ومعنى أكبرنه أعظمنه وقال الأزهري: يقال: أكبرت المرأة إذا حاضت وقوله (فقطعن أيديهن) كناية عن دهشتهن وحيرتهن والسبب في حسن هذه الكناية أن كل واحدة منهن دهشت فكانت تظن أنها تقطع الفاكهة وكانت تقطع يد نفسها أو يقال: إنها لما دهشت صارت بحيث لا تميز نصابها من حديدها فكان يحصل الجراحة في كفها واتفق الأكثرون عن أنهن إنما أكبرنه بحسب الجمال الفائق والحسن الكامل، قيل كان فضل حُسنٌ يوسف على الناس كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وقيل كان يوسف عليه السلام إذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها، وقيل كان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه ربه وهذا القول هو الذي اتفقوا عليه ويقول الفخر الرازي في تفسيره: وعندي أنه يحتمل وجها آخر وهو أنهن إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والاحتشام وشاهدن منه مهابة النبوة، فالظاهر أنهن اجتمعن مع يوسف عليه السلام وقلن لا مصلحة لك في مخالفة أمرها وإلا وقعت في السجن وفي الذل فعند ذلك اجتمع في حق يوسف عليه السلام أنواع من الوسوسة:

أحدها: أن زليخا في غاية الحسن.

والثاني: أنها كانت ذات مال وثروة وكانت على عزم أن تبذل الكل ليوسف بتقدير أن يساعدها على مطلوبها.

والثالث: أن النسوة اجتمعن عليه وكل واحدة منهن كانت ترغبه وتخونه بطريق آخر، ومكر النساء في هذا الباب عظيم. وهيئة الملكية وهي عدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح، وعدم الاعتداد بهن، وكان الجمال العظيم مفروسا بتلك الهيبة والهيئة، فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أنهن أكبرنه وعظمنه، ووقع الرعب والمهابة منه في قلوبهن وعندي أن حمل الآية على هذا الوجه أولى

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[٨١] وكلمة حاشا هي تنزيه لله تعالى عن العجز عن خلق هذا الجمال المثالي، أو أنهن قد نزهن صاحب تلك الصورة عن حدوث منكر أو فاحشة بينه وبين امرأة العزيز أو أن يوسف عليه السلام لابد أن يكون قد خرج عن صورة أرقى من صورة الإنس التي يعرفنها إذن فحين رأت النسوة يوسف عليه السلام قلن (ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم) وهنا يعني أن يوسف عليه السلام هو الصورة العليا في الجمال التي لا يوجد لها مثيل في البشر وأنا أقول إلا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ربما يكون أجمل من يوسف عليه السلام وبعد ذلك يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾[٨٢] وكأنها وجدت الفرصة لتثبت لنفسها العذر لمراودتها ليوسف فيوسف باعترافهن قد بلغ من الجمال ما لا يوجد مثله في البشر وقوله (فذلكن الذي لمتنني فيه وقد راودته عن نفسه فاستعصم) قالت ذلك بجراءة من رأت تأثير رؤيتهن ليوسف عليه السلام وأعلنت الفعل، وهو قول يثبت أن رجولة يوسف غيرنا قصة فقد جاهد نفسه ليكبتها عن الفعل ويتابع الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان امرأة العزيز ((ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكون من الصاغرين)) قالت ذلك وكأنها هي التي تصدر الأحكام، والسامعات لها من أكبرن يوسف لحظة رؤيته تعلن لهن أنه إن لم يطعها فيما تريد فلسوف تسجنه وتصغر من شأنه لإذلاله وإهانته أما النسوة اللاتي سمعنها، فقد طمعت كل منهن أن تطرد امرأة العزيز يوسف من القصر حتى تنفرد به. ولذلك يورد لنا الحق سبحانه وتعالى قول يوسف عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٨٣] واعلم أن المرأة لما قالت: (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكون من الصاغرين) وسائر النسوة سمعن هذا التهديد

٨١- يوسف:٣١

٨٢- يوسف:٣٢

٨٣- يوسف:٣٣

والرابع: أنه عليه السلام كان خائفاً من شرها وإقدامها على قتله وإذلاله فاجتمعت في حق يوسف جميع جهات الترغيب على موافقتها وجميع جهات التخويف على مخالفتها فخاف عليه السلام أن تؤثر هذه الأسباب القوية الكثيرة فيه واعلم أن القوة البشرية والطاقة الإنسانية لا تفي بحصول هذه العصمة القوية فعند هذا التجأ إلى الله سبحانه وتعالى وقال: (رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه) نلاحظ أنه قال: (رب السجن أحب إليّ.... الخ) وهنا السؤال يطرح نفسه (السجن في غاية المكروهية وما دعونه إليه في غاية المطلوبية فكيف قال: المشقة أحب إليّ من الملذة والجواب أن تلك اللذة كانت تستعقب آلاما عظيمة وهي الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة وذلك المكروه وهو اختيار السجن كان يستعقب سعادات عظيمة وهي المدح في الدنيا والثواب الدائم في الآخرة فلهذا السبب قال: (السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه) ثم دعا يوسف ربه فقال: وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ولسائل أن يقول ولماذا لم يقل يوسف (يا إلهي) وهو يعلم أن مناط التكليف في الألوهية ب"افعل" أو "لا تفعل" والجواب كما قال الشعراوي في تفسيره: أراد يوسف أن يدعو ربه باسم الربوبية اعترافا بفضله سبحانه وتعالى بأنه هو جل وعلا من رباه وتعهده وهو يدعو هنا باسم الربوبية ألا يتخلى عنه في هذه المواقف فيوسف عليه السلام يعلم أنه من البشر وإن لم يصرف الله عنه كيدهن لاستجاب لغوايتهن ولأصبح من الجاهلين الذين لا يلتفتون إلى عواقب الأمور وعلى الرغم من أن السجن أمر كريه إلا أنه فضله على معصية خالقه ولأنه لجأ إلى المربي الأول لتأتي الاستجابة منه ثم قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٨٤] وهكذا فإن الله تفضل عليه وتولى حمايته فصرف عنه كيدهن الذي تمثل في دعوتهن له أن يستسلم لما دعته إليه امرأة العزيز ثم غوايتهن له بالتلميح دون التصريح وهكذا أنجاه الله من مكر النسوة وهو جل وعلا مطلق السمع ومطلق العلم ولا يخفى عليه شيء ويستجيب لأهل الصدق في الدعاء ولذلك قال في نهاية الآية (إنه هو السميع العليم) ويقول الله سبحانه وتعالى بعد ذلك ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[٨٥]

٨٤- يوسف:٣٤

٨٥- يوسف:٣٥

وبعد أن ظهرت العلامات الشاهدة على براءة يوسف أمام العزيز وانكشف لهم انحراف امرأة العزيز وإصرارها على أن توقع بيوسف في الفعل الفاضح معها دون خجل أو خوف من الفضيحة. لذلك رأى العزيز وأهل مشورته أن يوضع يوسف في السجن ليكون في ذلك فصلا بينه وبينها حتى تهدأ ضجة الفضيحة وليظهر للناس أن يوسف هو المسؤول عن كل هذا السوء الذي ظهر في بيت العزيز، كما أن كلمة (ليسجننه) فيها نوع من استبقاء الحب الذي يكنه العزيز ليوسف فهو لم يقتله ولم ينفه بل احتفظ به بعيداً عن الزوجة المصرة على الخيانة وعن المجتمع الذي يلوك تلك الوقائع، وماذا عن حال يوسف بعد دخوله السجن قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٨٦]. المعية التي دخل فيها اثنان من الفتية معه السجن هي معية ذات وقيل إنهما الخباز والساقي. قال الرازي: هما غلامان كانا للملك الأكبر بمصر أحدهما صاحب طعامه والآخر صاحب شرابه رفع إلى الملك أن صاحب طعامه يريد ان يسمه وظن الملك أن الآخر يساعده عليه فأمر بحبسهما وحدث أن رأى كل منهما حلماً فقررا أن يطلبا منه تأويل هذين الحلمين، والحلمان هما: (قال أحدهما: إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر: إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبأنا بتأويله إنا نراك من المحسنين). والسؤال كيف عرفا أنه من المحسنين، أجاب الرازي في تفسيره أنه كان يؤثر الإحسان ويأتي بمكارم الأخلاق وجميع الأعمال الحميدة، وقيل إنه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فقالوا: إنك من المحسنين في أمر الدين ومن كان كذلك فانه يوثق بما يقوله في تعبير الرؤيا وفي سائر الأمور، والحلمان يفهمان من سياق الآية فواحد منهما رأى في منامه أنه يعصر خمراً ورأى الثاني أنه يحمل خبزا فوق رأسه تأكل الطير منه، فالتجأا إليه لمّا رأياه من المحسنين ليفسر لهما الحلم، وقبل أن يبدأ يوسف بتفسير الرؤى بدأ بوعظهم فقال تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[٨٧].

٨٦- يوسف:٣٦

٨٧- يوسف:٣٧

قال القرطبي في تفسيره رقم (٤ صفحة ٣٥١٢) قوله: (لا يأتيكما طعام ترزقانه) يعني لا يجيئكما غداً طعام من منزلكما إلا نبأتكما بتأويله لتعلما أني أعلم تأويل رؤياكم. قال الشعراوي في تفسيره: وهذه ليست خصوصية في يوسف أومن عند نفسه ولكنها من علم تلقاه عن الله سبحانه وتعالى وهو أمر يعلمه الله لعباده المحسنين.. قال الرازي في تفسيره هذه الآية: ذلكما مما علمني ربي أي لست أخبركما على جهة الكهانة والنجوم وإنما أخبرتكما بوحي من الله تعالى وعلم حصل بتعليم الله تعالى. ثم قال تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾٨٨ وبذلك أوضح يوسف للسجينين انه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ولا يؤمنون بالبعث والحساب. ويتابع الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان يوسف فيقول: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾٨٩٠ ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك ما واصله يوسف من حديثه للسجينين: (يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار). قوله تعالى: (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار). قال الرازي في تفسيره وتقريره: هذه الحجة أن نقول إن الله تعالى يبين أن كثرة الآلهة توجب الخلل والفساد في هذا العالم وهو قوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فكثرة الآلهة توجب الفساد والخلل، وكون الإله واحداً يقتضي حصول النظام وحسن الترتيب فلما قرر هذا المعنى في سائر الآيات قال ههنا: (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار)، والمراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار ويعني ذلك أنه لم يكن ليسأل إلا إذا عرف أنهما سيديران كل الأجوبة فلا يجدان جواباً إلا الجواب الذي أراده وهنا سؤال وهو لم سماها أربابا بقوله (أأرباب متفرقون)، وهي ليست كذلك، والجواب ما قاله الرازي في تفسيره لاعتقادهم فيها أنها كذلك.

٨٨- يوسف:٣٩

٨٩- عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الكريم بن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليهم السلام) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٣١١٦) وأحمد في مسنده مجلد ٢_٤١٦,٣٣٢ ، والحاكم في مستدركه ٢/٣٤٦.

٩٠- يوسف:٣٨

ثم قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٩١] ونلاحظ أن يوسف عليه السلام لم يتكلم حتى الآن مع السجينين عن مطلوبهما منه وهو تأويل الرؤيتين، وهو لو تكلم في المطلوب منه أولاً: لانصرف ذهن وانتباه كل من السجينين إلى قضاء حاجتهما منه، ولا يلتفت بعد ذلك إلى ما يدعو إليه ولأن الذي يدعو إليه هو الأمر الأبقى وهو الأمر العام الذي يتعلق بكل حركة من حركات الحياة، ولذلك كان يوسف عليه السلام يؤثر السجينين فقد أراد أن يفهمهما إلى الأمر الجوهري قبل أن يتحدث عن الجزئية الصغيرة التي يسألان عنها. وهنا قال الحق سبحانه وتعالى على لسان يوسف عليه السلام: (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم). أي أن ما تعبدونه من آلهة متعددة هو مجرد عبادة لأسماء بلا مسمى ولا وجود لأسماء ورثتموها عن آبائكم أو أنشأتموها أنتم فكفرتم بإنشاء أسماء لآلهة غير موجودة كما كفر آباؤكم كفر نسيان التكليف أو إنكار التكليف، وتوضح الأسماء عبادة غير الله للدلالة على المسمى وتتابع الآية الكريمة ما جاء على لسان يوسف (إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه). أي إنني إن قلت شيئاً فلأني ناقل الحكم عن الله لا عن ذاتي ويذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة: (ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون). أي أن هذا الدين هو الدين المستقيم دون سواه وأن الرسل قد بلغتهم بالمنهج. ثم بدأ يوسف عليه السلام في تأويل المطلوب لهما يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[٩٢]. وهكذا رجع يوسف عليه السلام إلى مطلب السجينين وفي رؤيا من يسقي الخمر بأنه سيخرج من السجن ويعود ليسقي سيده. وأما الآخر فلسوف يصلب وتأكل الطير من رأسه، لأن رمزية الرؤيا تقول إن الطير سيأكل من رأسه وهذا يعني أن رأسه ستكون طعاماً للطيور، وعلم الرؤيا علم يقذفه الله في قلوب من علمهم تأويل الأحاديث، وهي قدرة على فك شفرة الحلم ويعطيها الله لمن يشاء من عباده وأنهى يوسف عليه السلام التأويل بالقول (قضي الأمر الذي فيه تستفتيان)،

٩١- يوسف: ٤٠

٩٢- يوسف: ٤١

أي أنه لا مجال للرجوع أو العدول عن حدوثه ذلك الذي وصل إليه من تأويل، فقد جاء التأويل وفقاً لما علمه اللّه له ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك ما قاله يوسف لمن ظن أنه سيخرج من السجن ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾٩٣ والمقصود هنا هو السجين الذي رأى حلماً يعصر فيه العنب فهو الذي فسر له يوسف عليه السلام رؤياه بأنه سينجو ويواصل مهمته في صناعة الخمر لسيده وقد أوصاه يوسف عليه السلام ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾٩٤ والذكر هو حضور شيء بالبال، أي اذكر ما وجدته عندي من خير أمام سيدك، وقال بعض المفسرين: إن يوسف عليه السلام حين نطق هذا القول: شاء اللّه له أن يمكث في السجن بضع سنين فما كان ينبغي له كرسول أن يوسط الغير في مسألة ذكره بالخير عند سيد ذلك السجين. فيوسف عليه السلام كرسول إنما يتلقى عن اللّه بواسطة الوحي، وهو قد قال لذلك السجين وزميله: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾٩٥. وهذا يعني أنه يستقبل عن اللّه سبحانه وتعالى مباشرة وكان عليه أن يظل موصولاً بالمصدر الذي يفيض عليه. ويتابع الحق سبحانه وتعالى ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾٩٦ ونسيان ذكر اللّه تعالى فيه نوع من العقوبة أو يحمل شيئاً من التأديب ليوسف عليه السلام، وهذا ما يشرح لنا بقاء يوسف في السجن بضع سنين ونعرف أن البضع من السنين يعني من ثلاث سنوات إلى عشر سنوات وبعض العلماء حدده بسبع سنين قال قتادة: إن يوسف عوقب بسبب رجوعه إلى غير اللّه. وعن مالك أن يوسف قال: طول البلاء أنساني ذكر المولى فقلت هذه الكلمة فويل لإخوتي، قال فخر الدين الرازي: والذي جربته من أول عمري إلى آخره أن الإنسان كلما عول في أمر من الأمور على غير اللّه صار ذلك إلى البلاء والمحنة

٩٣- يوسف:٤٢

٩٤- يوسف:٤٢

٩٥- يوسف:٣٧

٩٦- يوسف:٤٢

والشدة والرزية وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه سبعة وخمسين عاماً فعند هذا استقر قلبي على أنه لا مصلحة للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله وإحسانه. ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[٩٧] والأرض التي وقعت عليها وجرت فوقها تلك القصة هي مصر وسبق أن عرفنا ذلك.

وهكذا نعلم أن هناك (ملك) وهناك (عزيز) ونحن نعلم أن حكام مصر القديمة كانوا يسمّون الفراعنة وبعد أن اكتشف (حجر الرشيد) وتم فك ألغاز اللغة الهيروكلوفية عرفنا أن حكم الفراعنة قد اختفى لفترة حين استعمر مصر ملوك الرعاة وهم الذين يسمون الهكسوس وكانت هذه هي الفترة التي ظهر فيها النبي يوسف وما عمله أخوته معه فلما استرجع الفراعنة حكم مصر طردوا الهكسوس وقتلوا من كانوا يوالونهم وحديث القرآن عن وجود ملك في مصر أثناء قصة يوسف هومن إعجاز التنبؤ في القرآن ﴿تفسير الشعراوي ١١/٦٩٦٧﴾ ونعود لتفسير الآية (وقال الملك: إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف.....) الآية. قال الفخر الرازي: اعلم أنه تعالى إذا أراد شيئاً هيّأ له أسبابا ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر في النوم سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف[٩٨] فابتلعت العجاف السمان ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبّها وسبعا أخر يابسات فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فجمع الملك[٩٩] الكهنة وذكرها لهم وهو المراد من قوله تعالى: يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي فقال القوم: هذه الرؤيا مختلطة فلا نقدر على تعبيرها وتأويلها ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾[١٠٠].

٩٧- يوسف:٤٣

٩٨-عجاف: أي هزيلة يقال: عند العامة جلدها على عظمها.

٩٩- إضافة من المؤلف وليست من كلام الرازي.

١٠٠- يوسف:٤٤

ويقول الله تعالى بعد ذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾[١٠١]. واعلم أن الملك لما سأل الملأ عن الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز قال الذي نجا من السجن: إن في السجن رجلاً فاضلا وصالحاً كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين فأولهما لنا فصدق في تأويله وما أخطأ فان أذنت أيها الملك ذهبت إليه ليفسر لك هذه الرؤيا فهذا هو قوله: ((وقال الذي نجا منهما)) وأما قوله ((وادّكر بعد أمة)) أي أنه أجهد عقله وذهنه وقوله (بعد امة). قال الرازي: أي بعد حين وذلك لأن الحين إنما يحصل عند اجتماع الأيام الكثيرة كما أن الأمة إنما تحصل عند اجتماع الجمع العظيم فالحين كان أمة من الأيام والساعات وقوله: ((أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون)) أي قال الساقي للملأ وللملك عن تلك الرؤيا أنا أنبئكم بتأويل هذه الرؤيا (فأرسلون) يعني أن التأويل ليس من عنده بل هو يعرف من يستطيع تأويل الرؤى ((وهو يوسف عليه السلام الذي تذكر حبسه)). وهكذا ينتقل بنا القرآن من طلب الإرسال إلى لقاء يوسف

فيقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان ساقي الملك ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[١٠٢] قلت يوسف: أي يوسف فأداة النداء محذوفة ويوسف منادى. وقوله أيها الصديق: يدل على أنه قد جرّبه في مسائل وثبت صدقه وقوله الصدّيق: مبالغة في الصدق ثم نأتي إلى رؤيا الملك وهي ما قد ذكرناها والآن وقوله أفتنا في سبع بقرات... (الآية). أي أفتنا في رؤيا سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات شديدة الهزال وسبع سنبلات خضر وسبع أخريات يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون. قال تعالى على لسان يوسف: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾[١٠٣] وهذه بداية تأويل رؤيا الملك، والدأب معناه: المواظبة فكان يوسف عليه السلام قد طلب أن يزرع أهل مصر بدأب (بمواظبة) وبدون كسل والمعنى تزرعون سبع سنين متتالية وبدون كسل فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون أي: كل ما أردتم أكله فادرسوه ودعوا الباقي في سنبله حتى لا يفسد ولا يقع السوس فيه لأن إبقاء الحبة في السنبلة يوجب بقائها صالحة لمدة طويلة.

١٠١- يوسف:٤٥

١٠٢- يوسف:٤٦

١٠٣- يوسف:٤٧

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾١٠٤ سبع سنين شداد: أي مجدبات. والشداد: الصعاب التي تشتد على الناس وقوله (يأكلن ما قدمتم لهن) بطبيعة الحال نفهم أن السنوات ليست هي التي تأكل بل البشر الذين يعيشون في تلك السنوات هم الذين يأكلون. قال الرازي: هذا مجاز فان السنة لا تأكل فيجعل أكل أهل تلك السنين مسنداً إلى السنين والمعنى: أنهم سيأكلون مما أحصنوا إلا قليلاً لأنهم بعد أن يأكلوا لابد لهم من الاحتفاظ بكمية من الحبوب والبذور لاستخدامها كتقاوى في العام التالي السبع سنوات موصوفة بالجدب. وقوله ((إلا قليلاً مما تحصنون)) أي قليلاً مما تدخرونه للسنين العجاف، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾١٠٥ وهنا لطيفة رائعة: قال المفسرون: السبعة المتقدمة سنون الخصب وكثرة النعم والسبعة الثانية سنون القحط والقلة وهي معلومة من الرؤيا وأما حال هذه السنة التي فيها يغاث الناس كما في الآية فما حصل في منام الملك شيء يدل على هذه السنة بل حصل ذلك بوحي من الله فكأنه عليه السلام ذكر أنه يحصل بعد السبعة المخصبة والسبعة المجدبة سنة مباركة كثيرة الخير والنعم وذكر الرازي عن قتادة: زاده الله علم سنة وقوله سبحانه (فيه يغاث الناس) أي يمطرون. وقوله (وفيه يعصرون) أي يعصرون السمسم دهنا والعنب خمراً والزيتون زيتاً وهذا يدل على ذهاب الجدب وحصول الخصب والخير ولما رجع ساقي الملك من عند يوسف وأخبره بتفسير الرؤيا أعجبه هذا التفسير وقال: ائتوني به لأسمع منه تفسير الرؤيا بنفسي فيقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾١٠٦ فعند ذلك جاء الساقي إلى يوسف وأخبره بأمر الملك. فيقول الله تعالى على لسان يوسف ((ارجع إلى ربك)) أي قال يوسف للرسول: ارجع إلى سيدك الملك (فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) أي سله عن قصة النسوة اللاتي قطعن أيديهن هل تعلم أمرهن؟ وهل يدري لماذا حُبِسْتُ ودخلت السجن؟ واني ظلمت بسببهن؟.

١٠٤- يوسف:٤٨

١٠٥- يوسف:٤٩

١٠٦- يوسف:٥٠

- قال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: ((إن يوسف عليه السلام أبى أن يخرج من السجن حتى تبرأ ساحته من تلك التهمة الشنيعة وأن يعلم الناس جميعاً والملك أنه حبس بلا ذنب وان كنت أنا أي لوكنت مكانه لم أفعل أي لم أفهمهم حتى أخرج، وعجبت من صبره وكرمه والله يغفر له أتي ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره ولو كنت أنا لبادرت الباب ولكنه أحب أن يكون له العذر١٠٧)). والمعنى: أن الملك جمع النسوة ودعا امرأة العزيز معهن فسألهن عن أمر يوسف وقال لهن: ما شأنكن الخطير حين دعوتن يوسف إلى مقارفة الفاحشة. ((قلن حاشا لله ما علمنا عليه من سوء)) أي معاذ الله أن يكون يوسف أراد السوء وهو تنزيه له وتعجب من نزاهته وعفته. عند ذلك: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ﴾١٠٨ أي انكشف الأمر وظهرت حقيقته إنني أنا التي راودته عن نفسه وإنه برئ من الخيانة وصادق في قوله (هي راودتني عن نفسي).

- وهذا اعتراف صريح من امرأة العزيز ببراءة يوسف على رؤوس الأشهاد. ثم يتابع الحق علينا القصة فيقول: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾١٠٩ اختلف العلماء في هذه الآية: هل هي راجعة إلى امرأة العزيز أم إلى يوسف وسنفسرها على الوجهين:

- فأما إذا كانت عائدة إلى امرأة العزيز فيكون المعنى هو: أنها قالت ذلك حتى تعلن براءة يوسف عليه السلام أنها لم تنتهز فرصة غيابه في السجن وتنتقم منه لأنه لم يستجب لمراودتها له ولم تنسج له أثناء غيابه المؤامرات والدسائس والمكائد.

١٠٧- أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١٦٤٠)

١٠٨- يوسف:٥١

١٠٩- يوسف:٥١

- وبعد أن اعترفت امرأة العزيز بما فعلت قالت: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[١١٠] أي أنها أقرّت بأنه سبحانه لا ينفذ كيد الخائنين ولا يوصلّه إلى غايته. وتواصل امرأة العزيز فتقول: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١١١]. هذا القول من تمام كلام امرأة العزيز وكأنها توضح سبب حضورها لهذا المجلس فهي لم تحضر لتبرئ نفسها فان النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم.

- وأما القول الثاني بأنه من جملة كلام يوسف فيكون المعنى: (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) أي ليعلم العزيز أن براءتي قد ظهرت وليعلم أني لم أخنه في زوجته في غيبته بل تعففت عنها (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) أي لا يوفق الخائن ولا يسدد خطاه. (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء) أي لا أزكي نفسي ولا أنزهها فان النفس البشرية ميالة إلى الشهوات. وهذه المقولة قالها يوسف على وجه التواضع قال الزمخشري: أراد أن يتواضع لله ويتهم نفسه وقوله: (إلا ما رحم ربي) أي إلا من رحمه الله بالعصمة (إن ربي غفور رحيم). ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾[١١٢]. وقال الملك: وهو الملك الأكبر (الريان). (ائتوني به) أي بيوسف. (أستخلصه لنفسي) أي أجعله خالصاً لنفسي. وتقرير الكلام أن الملك عظم اعتقاده في يوسف وأصبحت له مكانة رفيعة عنده وذلك لعدة أسباب منها:

١- أنه عظم اعتقاده في علمه (وذلك لأنه لما عجز القوم عن الجواب وقد علم يوسف المواقف التي يشهد العقل بصحتها فمال الطبع إليه).

٢- ثانيها: أنه عظم اعتقاده في صبره وثباته وذلك لأنه بعد أن بقي بالسجن بضع سنين وعندما أذن له في الخروج لم يسرع إلى الخروج بل صبر وتوقف وطلب أولاً ما يدل على براءة حاله من جميع التهم.

٣- والثالث: أنه عظم اعتقاده في حسن أدبه وذلك لأنه اقتصر على قوله (ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) وان كان غرضه ذكر امرأة العزيز فستر ذكرها وتعرض لأمر سائر النسوة مع أنه وصل إليه من جهتها أنواع عظيمة من البلاء وهذا من الأدب العجيب.

١١٠- يوسف:٥٢

١١١- يوسف:٥٣

١١٢- يوسف:٥٤

٤- والرابع: براءة حاله من جميع أنواع التهم.

٥- والخامس: كثرة طاعاته في السجن عندما كان مسجوناً كما وصفه الساقي للملك.

٦- والسادس: أنه بقي في السجن بضع سنين مظلوماً ولم تصدر منه أية إزعاجات أو أية مشاغبات. وهذه الأمور كل واحد منها يوجب حسن الاعتقاد في الإنسان فكيف بمجموعها فلهذا السبب حسن اعتقاد الملك فيه، هذا وإذا أحب الله عبداً من عباده ألقى له محبة في كل قلب من يلقاه، وقد ألقى الله على يوسف محبة منه ليجعل كل من يلتقي به يحب أن يخدمه. ثم يأتي يوسف إلى الملك (فلما كلمه) أي فلما أتوا به كلمه الملك وشاهد منه الرشد والدهاء قال الرازي: كان يوسف في ذلك الوقت ابن ثلاثين سنة. (وكلمه) أي كلمه بتأويل الرؤيا بنفسه فلما سمع الملك منه تأويلها أعجب به قال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[١١٣]. مكين: يقال فلان مكين عند فلان بين المكانة أي المنزلة والجاه وقوله (أمين) الأمين المؤتمن على كل شيء. والمعنى: قد عرفت أمانتك ومنزلتك وبراءتك مما نسبت إليه. قال المفسرون: لما عبر يوسف رؤيا الملك بين يديه قال: له الملك فما ترى أيها الصديق أي ماذا نفعل فأجابه: أرى أن تزرع في هذه السنين المخصبة زرعاً كثيراً وتبني الخزائن وتخزن فيها المؤنة فإذا جاءت السنون المجدبة بعنا الغلات فيحصل بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك: ومن لي بهذا الشغل فقال يوسف عندها: اجعلني على خزائن الأرض، أراد بالأرض أرض مصر والمعنى (اجعلني على خزائن الطعام والأموال) بمعنى (وزير مالية كما يقال: في عصرنا أو خازن بيت المال).

مسألة: لم طلب يوسف هذا المنصب والنبي محمد صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن سمرة ((لا تسأل الإمارة))؟

الجواب: قاله الرازي: أن التصرف في أمور الخلق كان واجبا عليه فجاز له أن يتوصل إليه بأي طريق كان وإنما قلنا إن ذلك التصرف كان واجبا عليه فجاز لوجوه منها:

١- أنه كان رسولا حقا من الله إلى الخلق والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان.

١١٣- يوسف:٥٤

٢- أنه عليه السلام علم بالوحي أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذي ربما أفضى إلى هلاك الخلق، فلعله تعالى أمره بأن يدبر في ذلك ويأتي بطريق لأجله يقلل ضرر ذلك القحط في حق الخلق فإذا ثبت هذا فنقول إنه عليه السلام كان مكلفاً برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب أ. هـ. وقوله (إني حفيظ عليم) أي أني حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها.

مسألة: كيف جوّز لنفسه مدح نفسه بقوله إني (حفيظ عليم) مع أنه تعالى يقول: (فلا تزكوا أنفسكم).

الجواب: قاله الرازي: الملك كان يعلم كماله في علوم الدين لكنه ما كان عالماً بأنه يفي بهذا الأمر فكأن يوسف أراد أن يخبره بأنه يستطيع القيام بهذا الأمر لثقته في إنجاح المهمة ثم نقول: هب أنه مدح نفسه إلا أن مدح النفس إنما يكون مذموما إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل إلى غير ما يحلّ فأما على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم فقوله تعالى: (فلا تزكوا أنفسكم) المراد منه هنا تزكية النفس حال ما يعلم كونها غير متزكية والدليل عليه قوله تعالى: في نهاية هذه الآية (هو أعلم بمن اتقى) أما إذا كان الإنسان عالما بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه والله أعلم (انتهى باختصار فيه وبإضافات بسيطة).

- وبذلك يظهر يوسف وجه الحق ويزيل سيطرة الباطل ولهذا نجد يوسف عليه السلام يقول للملك ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[١١٤] ويقول الله سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١١٥] أي وكذلك مكنا ليوسف في أرض مصر وجعلنا له العز والسلطان بعد الحبس والضيق وكما أنعمنا عليه وزيناه في عين الملك حتى رفع منزلته (يتبوأ منها حيث يشاء) أي ينزل منها حيث يشاء (نصيب برحمتنا من نشاء) أي نختص بنعمتنا قال الخازن: نعمتنا هي النبوة أو (من نشاء) أي نختص بأنعامنا وفضلنا من نشاء من عبادنا (ولا نضيع أجر المحسنين) أي لا نضيع أجر من أحسن عمله وأطاع ربه بل نضاعفه له...

١١٤- يوسف:٥٥

١١٥- يوسف:٥٦

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي لا نضيع أجر الصابرين. ويقول سبحانه: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[١١٦] أي أن أجر الآخرة أكثر خيرا من جزاء الدنيا لأن جزاء الآخرة دائم على عكس خير الدنيا فانه قد تفوته أو يفوتك ويقول الحق سبحانه بعد ذلك عن إخوة يوسف ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[١١٧]

- اعلم أنه لما عَمّ القحط في البلاد، ووصل أيضا إلى البلدة التي كان يسكنها يعقوب عليه السلام وصعب الزمان عليهم فقال لبنيه: إن بمصر رجلاً صالحاً يمير الناس فاذهبوا إليه بدراهمكم وخذوا الطعام فخرجوا إليه وهم عشرة ودخلوا على يوسف عليه السلام وصارت هذه الواقعة كالسبب في اجتماع يوسف مع إخوته وظهور صدق ما أخبر الله عنه في قوله تعالى ليوسف عندما ألقوه في الجب ((لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون)). وأخبر تعالى أن يوسف عرفهم وهم ما عرفوه فقال سبحانه فعرفهم وهم له منكرون.

مسألة: لماذا عرفهم يوسف وهم لم يعرفوه، أجاب الرازي: أما إنه قد عرفهم فلأن الله كان قد أخبره في قوله لتنبئنهم بأمرهم بأنهم يصلون إليه ويدخلون عليه وأيضا الرؤيا كانت دليلاً على أنهم يصلون إليه فلهذا كان يوسف مترصداً لذلك الأمر وكان كل من وصل إلى بابه من البلاد البعيدة يتفحصهم ويسأل عنهم ليعرف أنهم هم إخوته أم لا وأجاب الشعراوي: لأنه تركهم وهم كبار قد تحددت ملامحهم ونعلم أن الإنسان حين يمر عليه عقد من الزمان فهذا الزمن قد يزيد في تحديد ملامحه إذا ما كان كبيرا ناضجا لكنه لا يغيرها مثلما يغير الزمن ملامح الطفل حين يكبر ويصل إلى النضج.

- أما أنهم لم يعرفوه: هو أنهم حينما القوه في الجب كان صغيرا ثم إنهم رأوه بعد وفور اللحية وتغير الزي والهيبة فإنهم رأوه جالسا على سريره وعليه الثياب المزخرفة والتاج.

- والقوم أيضا نسوا واقعة يوسف لطول المدة... وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين إلقائه في الجب وبين دخولهم عليه اثنتان وعشرون سنة فلهذا أنكروه (حاشية الصاوي٢/٢٤٩).

١١٦- يوسف:٥٧

١١٧- يوسف:٥٨

فلما دخلوا على يوسف قال: كالمنكر عليهم ما أقدمكم، قالوا: جئنا للميرة، قال: لعلكم عيون (جواسيس) علينا، قالوا: معاذ الله، قال: فمن أين أنتم قالوا: من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله قال: أوله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثني عشر ولداً فذهب أصغرنا وهلك في البرية وكان أحبنا إليه وبقي شقيقه فاحتبسه ليتسلى به عنا وجئنا نحن العشرة فأمر يوسف بإنزالهم وإكرامهم (تفسير الجلالين ٢/٢٤٩ صفوة التفاسير ٢/٥٨) وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾[١١٨] أي هيأ لهم الطعام والميرة وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم وطلب منهم من بعد ذلك أن يأتوا بأخيهم الذي عند أبيهم (بنيامين) معهم وقال لهم: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾[١١٩] أي أتمه ولا أبخسه وأزيدكم حمل بعير آخر لأجل أخيكم (وأنا خير المنزلين) أي خير المضيفين لأنه حين أنزلهم أكرم ضيافتهم. ويواصل الحق على ما جاء على لسان يوسف عليه السلام: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾[١٢٠] أي إن لم تأتوني بأخيكم فليس لكم عندي بعد اليوم ميرة ولا تقربوا بلادي مرة ثانية رغبهم ثم توعدهم قال في البحر: والظاهر أن كل ما فعله يوسف كان بوحي من الله وإلا فمقتضى البر أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه لكنّ الله أراد تكميل أجر يعقوب ومحنته ولتتفسر الرؤيا الأولى بأن يسجدوا له. ويوسف عليه السلام يعلم مقدما صعوبة أن يأمنهم أبوهم على أخيهم لذلك وجه إليهم هذا الإنذار ((فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي....))، وتلقوا الإنذار من يوسف وقالوا ما أورده القرآن هنا ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾[١٢١] - يعني أن الأمر ليس سهلا والمراودة تعني أخذ ورد وتحتاج إلى احتيال وأكدوا قولهم ((إنا لفاعلون)) أي سيبذلون كل جهودهم ويحتالون في انتزاعه من يد أبيهم. (البحر المحيط ٥/٣٢٢) ويقول الحق بعد ذلك: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١٢٢] واعلم أن يوسف أمر مساعديه أن يعيدوا البضائع التي أحضرها هؤلاء معهم ليقايضوا بها ما أخذوه من قمح وطعام وكان على مساعدي يوسف عليه السلام أن ينفذوا أمره بوضع هذه البضائع بشكل مستتر في الرحال التي أتوا عليها وفي هذا تشجيع لهم كي يعودوا مرة أخرى.

١١٨- يوسف:٥٩

١١٩- يوسف:٥٩

١٢٠- يوسف:٦٠

١٢١- يوسف:٦١

١٢٢- يوسف:٦٢

واختلف أهل العلم في البضاعة التي أتوا بها وردها إليهم: فاختار الشعراوي هذا القول (أي السابق) وذكر الخازن في تفسيره أنه أراد بالبضاعة ثمن الطعام الذي أعطوه ليوسف وكانت دراهم. قال الخازن: روى الضحاك عن ابن عباس أنها :

١- المبادلة والعوض. ٢- كانت النعال والأدم.

وهنا سؤال يطرح نفسه: لماذا ردّ يوسف إلى إخوته ما أتوا به؟

والجواب: ذكر ابن كثير في هذا أقوالا منها : أن يوسف خشي أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها . وقيل: تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضا عن الطعام. ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١٢٣] وكان قولهم هذا أول ما قالوه لأبيهم يعقوب عليه السلام فور عودتهم ومعهم الميرة وكأنهم أرادوا أن يوضحوا للأب أنهم منعوا مستقبلا من أن يذهبوا الى مصر ما لم يكن معهم أخوهم وحكوا لأبيهم قصتهم مع عزيز مصر وان وافق الأب على إرسال أخيهم بنيامين معهم فلسوف يكتالون ولسوف يحفظون أخاهم الصغير وهنا في قولهم هذا يحاولون أن يبعدوا ريبة الأب عما حدث ليوسف من قبل وهنا يأتي الحق سبحانه بما قاله أبوهم يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[١٢٤] وهنا يذكرهم أبوهم بإضاعتهم ليوسف من قبل فقد أضاعوا أخاهم يوسف وقالوا: قد أكله الذئب وأضاف: ((فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين)) والمعنى وثقت بكم في حفظ يوسف فأضعتموه فالآن أتوكل على الله في حفظ بنيامين.

مسألة: لم وافق يعقوب عليه السلام على إرسال بنيامين وقد شاهد ما شاهد منهم في إضاعتهم ليوسف أجاب الرازي: ضرورة القحط أحوجته إلى ذلك أو لعله تعالى أرضى وضمن حفظه وإيصاله إليه وذكر الرازي وجوهاً كثيرة لا داعي لذكرها . وبدأ أبناء يعقوب في فتح متاعهم بعد الرحلة وبعد الحوار مع أبيهم

١٢٣- يوسف:٦٣

١٢٤- يوسف:٦٤

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾[١٢٥] أي وبعد رجوعهم وجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم فقالوا: يا أبانا أي شيء نطلب وراء هذا الكرم؟ وفّى لنا الكيل وردّ علينا الثمن وأرادوا بذلك الكلام تطيب نفس أبيهم ولابدّ أن يصحبوا أخاهم في المرة القادمة ولسوف يحفظونه ولسوف يعودون ومعهم كيل زائد فوق بعير وهذا أمر هين ويسير على عزيز مصر أشاروا إلى ذلك بقولهم (ذلك كيل يسير). ولكن والدهم قال: ما أورده الله هنا ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[١٢٦]. أي قال لهم أبوهم: لن أرسل معكم بنيامين إلى مصر حتى تعطوني عهدا مؤكدا وتحلفوا بالله لتردّنه عليّ إلا أن يحاط بكم أي إلا أن تغلبوا فلا تقدروا على تخليصه ولا يبقى لكم طريق أو حيلة إلى ذلك.

قال مجاهد: إلا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذرا عندي. فعند ذلك حلفوا وأعطوه العهود المؤكدة فقال لهم أبوهم: ((الله على ما نقول وكيل)). أي شهيد ورقيب على ذلك. واستعدوا للرحيل إلى مصر في المرة الثانية مصطحبين معهم بنيامين ويوصي يعقوب أولاده ، فيقول الله على لسانه: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[١٢٧] قال الخازن: كان لمصر أربعة أبواب، قال السدي: أراد الطرق لا الأبواب. والمعنى: لا تدخلوا مصر من باب واحد.

– قال المفسرون: لأنه خاف عليهم من العين والحسد لأنهم كانوا قد أعطوا جمالا وقوة وهيبة والعين حق تدخل الرجل القبر ويقول يعقوب إني لا أدفع عنكم بتدبيري شيئاً مما قضاه الله عليكم فان الحذر لا يدفع القدر ((إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون)).

١٢٥- يوسف:٦٥

١٢٦- يوسف:٦٦

١٢٧- يوسف:٦٧

ونفذ أبناء يعقوب ما أمرهم به أبوهم يقول سبحانه: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١٢٨]

- ولما دخلوا من الأبواب المتفرقة وكان لمدينة مصر أربعة أبواب فدخلوا من أبوابها وما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم يرد عنهم أمراً أراده الله سبحانه فلا شيء يردّ قضاء الله ولعل أباهم قد أراد أن يردّ عنهم حسد الحاسدين أو خشية أن يشكّوا فيهم ولكن أيّ شيء لن يمنع قضاء الله قوله (إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها) معناه: لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها وهو أنه أشفق عليهم إشفاق الآباء على الأبناء وذلك أنه خاف عليهم من الحسد (وإنه لذو علم لما علمناه) أي وإنه صاحب علم لتعليمنا إياه ذلك العلم ويعرف موقع المسبب وموقع الأسباب ويعلم أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله لأنه سبحانه قد خلق الأسباب رحمة بعباده (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي يعزلون الأسباب عن المسبب وهذا ما يتعب الدنيا أو إن أكثر الناس لا يعلمون مثل ما علم يعقوب لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم. وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١٢٩]

وبعد مجيئهم إلى يوسف للمرة الثانية وإيفائهم بالوعد أكرم نزلهم ووضع كل اثنين على مائدة فبقي بنيامين وحيدا فوضعه معه فلمّا كان الليل قال لهم: كل اثنين منكم ينامان على فراش واحد فبقي بنيامين وحده فضمه إليه ونام بنيامين مع يوسف على فراشه فلمّا كان الصباح قال لهم: إني أرى هذا الرجل وحيدا وسأضمه إليّ فيكون معي في منزلي فهذا قوله "أوى إليه أخاه" فلما أصبح معه في بيته قال له: "إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون" أي فلا تكتئب ولا تحزن بما فعلوه بنا في ما مضى فإن الله قد أحسن إلينا وجمع بيننا

١٢٨- يوسف:٦٨

١٢٩- يوسف:٦٩

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾[١٣٠] أي ولمّا قضى يوسف حاجاتهم وحمّل إبلهم بالطعام والميرة أمر يوسف بأن تجعل السقاية وهي صاع من ذهب مرصع بالجواهر في متاع أخيه بنيامين ثم نادى مناد يا أصحاب الإبل أنتم قوم سارقون (إنه ما استمهل أن يرميهم بالسرقة لما في ذلك من المصلحة من إمساك أخيه) "قالوا: وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون" فلمّا وصل المنادون إليهم قالوا لهم: ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم ونوف إليكم الكيل قالوا: بلى وما ذاك؟ قالوا: فقدنا سقاية الملك ولا نتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾[١٣١] أي: التفتوا إليهم وسألوهم ماذا ضاع منكم وماذا فقد؟ فأجابوهم ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾[١٣٢] أي: أي لمن جاء بالصواع له جائزة وهي حمل بعير "وأنا به زعيم" أي وأنا أكفله وأضمن له الجائزة وهنا قال إخوة يوسف عليه السلام: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾[١٣٣] هذا قسم فيه معنى التعجب أي: قالوا متعجبين: والله لقد علمتم أيها القوم ما جئنا لنفسد في أرضكم ولسنا ممن يوصف بالسرقة قط لأننا أولاد أنبياء ولا نفعل مثل هذا الفعل القبيح عندها قال المنادون: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ۝١٣٤ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[١٣٥]

أي: ما عقوبة السارق في شريعتكم إن كنتم كاذبين فقالوا: لهم جزاء السارق أن يصبح عبداً لمن سرق منه وهذا جزاء من تعدى حدود الله بالسرقة وأمثالها وهذا القول منهم هو الحكم في شريعة يعقوب أما في شريعتنا فالسارق تقطع يده

١٣٠- يوسف: ٧٠

١٣١- يوسف: ٧١

١٣٢- يوسف: ٧٢

١٣٣- يوسف: ٧٣

١٣٤- يوسف: ٧٤

١٣٥- يوسف: ٧٥

. ويقول الحق سبحانه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[١٣٦] قال الصابوني في (تفسير الصفوة) أي: بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه بنيامين قال المفسرون هذا من تمام الحيلة ورفع التهمة فإنهم لمّا ادعوا البراءة قالوا لهم: لابد من تفتيش أوعيتكم واحداً واحداً فانطلقوا بهم إلى يوسف فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعا ولا ينظرون وعاء إلا استغفر الله ممّا قذفهم به. حتى بقي أخوه فقال يوسف: ما أظن هذا آخذ شيئاً فقالوا: والله لا نتركك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا فلمّا فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه فذلك قوله تعالى: "ثم استخرجها من وعاء أخيه" أي: استخرج الصواع من متاع أخيه بنيامين فلما أخرجها منه نكّس الأخوة رؤوسهم من الحياء وأقبلوا عليه يلومونه ويقولون له فضحتنا .... وقوله تعالى: "كذلك كدنا ليوسف..." أي: كذلك دبّرنا ليوسف "ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك" أي: ما كان ليوسف أن يأخذه أخاه في دين ملك مصر، لأن جزاء السارق عنده أن يضرب ويغرّم ضعف ما سرق إلا أن يشاء الله" أي: إلا بمشيئته وإذنه وقوله تعالى "نرفع درجات من نشاء" أي: نرفع بالعلم منازل من نشاء من عبادنا كما رفعنا يوسف وقوله تعالى "وفوق كل ذي علم عليم" قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الله العليم الخبير فوق كل عالم ذكره الطبري في تفسيره (١٣\٢٧) ثم قال تعالى: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[١٣٧]

- بعد أن ظهر الصواع في رحل بنيامين أطرق الأخوة رؤوسهم و... وقالوا: إن يسرق أي بنيامين (فقد سرق أخ له من قبل) يعنون به يوسف قال الخازن في تفسيره: ظاهر الآية يقتضي أن إخوة يوسف قالوا للملك: إنّ هذا الأمر ليس بغريب منه فإن أخاه الذي هلك كان سارقا أيضا وكان غرضهم من هذا الكلام أنّا لسنا على طريقته ولا على سيرته بل هذا وأخوه كانا على هذه الطريقة وهذه السيرة لأنهما من أم أخرى غير أمّنا. (أ. هـ)

١٣٦- يوسف:٧٦

١٣٧- يوسف:٧٧

وهم لا يعلمون أنهم يتكلمون مع يوسف. واختلف المفسرون في هذه السرقة التي نسبوها إلى يوسف فأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) قال: "سرق يوسف صنما لجده أبي أمه من ذهب وفضة فكسره وألقاه في الطريق فعيّره بذلك إخوته" وكذلك ذكر بن جرير عن قتادة نحوه. وقيل غير ذلك (فأسّرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم) أي أخفى تلك المقولة في نفسه وكتمها ولم يظهرها لهم ولم ينزع إلى الرّد (قال: أنتم شرّ مكانا) أي أنتم شرّ منزلة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البريء ولم يواجههم بهذا الكلام وإنما قاله في نفسه (والله أعلم بما تصفون) أي بما تقولون أو تكذبون ويأتي الحق سبحانه وتعالى بما جاء على ألسنتهم بعد ذلك: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١٣٨] وهكذا دخلوا مع يوسف في نقاش وبدأوا في الاستعطاف بقولهم (إن له أبا شيخا كبيرا) أي هرما فخذ أحدنا بدلا له إنا نراك من المحسنين لنا في عطائنا وضيافتنا بل وفي جميع أفعالك معنا ... وكل هذه ترقيقات منهم لقلبه ولكن القاعدة هي ألا يؤخذ بالذنب إلا صاحبه ولذلك لم يفت هذا الأمر على يوسف فجاء الحق سبحانه بما يوضّح ذلك فيقول: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾[١٣٩] أي نعوذ بالله من أن نأخذ أحدا بجرم غيره فنكون ظالمين بذلك قال الألوسي في (روح المعاني) والتعبير بقوله (من وجدنا متاعنا عنده) بدل (من سرق) لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب.

ـ وهنا علم أبناء يعقوب أن المسألة لا يبتّ فيها بسهولة لأنها تتعلق بأمر خطير ويصوّر الحق حالتهم هذه فيقول: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[١٤٠] أي: فلما يئسوا من إجابة طلبهم يأسا تامّا اعتزلوا جانبا عن الناس يتناجون ويتشاورون.

١٣٨- يوسف:٧٨
١٣٩- يوسف:٧٩
١٤٠- يوسف:٨٠

لطيفة: ذكر القاضي عياض في كتاب (الشفا) أن أعرابيا سمع رجلاً يقرأ هذه الآية فلما استيئسوا منه خلصوا نجيًا "فقال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام وذلك أن الآية ذكرت صفة اعتزالهم لجميع الناس وانفرادهم من غيرهم وتقليبهم الآراء ظهرا لبطن وأخذهم في تزوير ما يلاقون به أباهم عند عودتهم إليه وما يوردون عليه من ذكر الحادثة فتضمنت تلك الآية القصيرة معاني القصة الطويلة. ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾[١٤١] عند ذلك قال أكبرهم سنا: وهو روبيل عندما رآهم قد قبلوا فكرة العودة دون أخيهم الذي احتجزه عزيز مصر قال لهم رأيه الذي حذّرهم فيه من أن يغفلوا عن أن أباهم قد أخذ عليهم موثقاً من الله إلاّ أن يحاط بهم كما يجب ألا ينسوا أنّ له سابقة حين أخذوا يوسف وضيّعوه وبناء على ذلك استقرّ قراره ألا يبرح المكان ولن يعود إلى أبيه إلا أن يأذن له بذلك أو أن يحكم الله له بأن يسلمه عزيز مصر أخاه أو أن يموت هنا في نفس البلد.

- ولذلك ترك إخوته يتحملون تلك المواجهة مع الأب وحين سألوه ماذا نفعل يا كبيرنا جاء قوله الذي أوردته الآية التالية: ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾[١٤٢] أي ارجعوا إلى أبيكم فأخبروه بحقيقة ما جرى وقولوا له إن ابنك بنيامين سرق ولسنا نشهد إلا بما تيقّنا وعلمنا فقد رأينا الصواع في رحله (وما كنا للغيب حافظين) أي ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق.

- ويعلم الأخ الكبير أن يعقوب عليه السلام قد يكذّب أولاده لأن هناك سوابق لهم لذلك أوصاهم الأخ الأكبر أن يقولوا لأبيهم إن كذّبهم ما جاء به الله سبحانه على ألسنتهم: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[١٤٣] أي واسأل أهل مصر عن حقيقة ما حدث. قال البيضاوي: أي أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة وأيضا: واسأل القافلة التي جئنا معهم. وهم قوم من كنعان كانوا بصحبتهم في هذه السّفرة (وإنّا لصادقون) فيما أخبرناك من أمره (١) البيضاوي ٢٦٨.

١٤١- يوسف: ٨٠
١٤٢- يوسف: ٨١
١٤٣- يوسف: ٨٢

لطيفة: وتأمل معي حين جاؤوا إلى أبيهم بدم كذب حين رموا يوسف في البئر وقالوا له قد أكله الذئب قالوا لأبيهم عندها (وما أنت بمؤمن لنا ولوكنا صادقين).

ـ أما في هذه المرّة وقد صدقوا بما أخبروا به أباهم قالوا له: (وإنا لصادقون).

ـ ويأتي الحقّ سبحانه بما جاء على لسان يعقوب: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[١٤٤] أي قال لهم: بل زيّنت وسهّلت لكم أمراً ومكيدة فنفذتموها (فصبر جميل) أي لا أجد سوى الصبر محتسبا أجري عند الله عسى ربي أن يجمع شملي بهم ويقر عيني برؤيتهم جميعاً.

ـ أي يوسف وبنيامين وأخوهم الأكبر الذي بقي في مصر إنه هو العليم الحكيم أي العليم بحالي الحكيم فيما يدبّره ويقضيه. ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[١٤٥]

ـ واعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع كلام أبنائه ضاق قلبه جداً وأعرض عنهم وفارقهم ثم بالآخرة طلبهم وعاد إليهم فقوله (وتولى عنهم) أي أعرض عنهم كراهة لما سمع منهم وقال: بعد عودته إليهم (يا أسفى على يوسف) أي يا لهفتي ويا حسرتي وحزني على يوسف والأسف أشد أنواع الحزن وإنما جدّد حزنه على يوسف عند وجود هذه الواقعة لأن الحزن القديم إذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيباً من الحزن الأول.

ـ وقوله سبحانه (وابيضت عيناه من الحزن) أي عمي من شدة الحزن على يوسف فهو كظيم: أي مملوء القلب كمدا وغيظا ولكنه يكتم ذلك في نفسه وهو مغموم ومكروب لتلك الداهية الدهياء وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيه إشارة إلى أنه كان يتوقع وصول يوسف إليه. ويذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان يعقوب فيقول: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[١٤٦]

١٤٤ـ يوسف:٨٣

١٤٥ـ يوسف:٨٤

١٤٦ـ يوسف:٨٧

أي يا أبنائي اذهبوا إلى الموضع الذي جئتم منه فالتمسوا يوسف وتعرفوا على خبره وخبر أخيه بحواسكم ولا تقنطوا من رحمة الله وفرجه وتنفيسه فإنه لا يقنط من رحمته تعالى إلا الجاحدون المنكرون لقدرته جل وعلا.

مسألة: نلاحظ من خلال ما مضى أنّ الذين غابوا هم ثلاثة: يوسف، وبنيامين، والأخ الأكبر الذي أصرّ على ألاّ يبرح مصر إلا بعد أن يأذن أبوه أو يأتي فرج من الله وهنا في هذه الآية جاء ذكر يوسف وأخيه ولم يأت ذكر الأخ الكبير فلماذا هذا؟

فالجواب: ما قاله الشعراوي قائلاً: "إن يوسف وأخاه هما المعسكر الضعيف الذي عانى من مناهضة بقية الأخوة وهما قد فارقا الأب صغيرين أما الأخ الكبير فيستطيع أن يحتال وأن يعود في الوقت الذي يريد.

- وينقلنا الحق سبحانه نقلة أخرى، وهي لحظة أن دخلوا على يوسف عليه السلام في مقره بمصر فيقول:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾[١٤٧]

إعجاز: واعلم أنّ المفسرين اتفقوا على أنّ (ها) هنا محذوفا والتقدير: أن يعقوب لمّا قال: لبنيه (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) قبلوا من أبيهم هذه الوصية فعادوا إلى مصر ودخلوا على يوسف عليه السلام فقالوا: له (يا أيها العزيز).

- وهذا من بلاغة القرآن الكريم ودعابته ومعنى الآية التي نحن بصددها أي: عندما دخلوا على يوسف قالوا: يا أيها العزيز أصابنا وأهلنا الشدة من الجدب والقحط وجئنا ببضاعة رديئة مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقار. قال ابن عباس: كانت دراهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام. ذكره الرازي في تفسيره عن ابن عباس. ويتابع الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم: "فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إنّ الله يجزي المتصدقين" هذا فيه نوع من الذلّ والانكسار أي: أتمم لنا الكيل ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا وتصدق علينا برد أخينا إلينا أو بالمسامحة.

١٤٧- يوسف:٨٨

هذا قول ابن جرير واختار الطبري أن المراد المسامحة لرداءة البضاعة، فإنّ الله يثيب المتصدقين المحسنين أحسن الجزاء.

ـ وانظر إلى ما فعلته الترقيقات التي قالوها، نظر إليهم يوسف عليه السلام وتبسم ولما تبسمّ ظهرت ثناياه وهي ثنايا مميزة عن ثنايا جميع من رأوه وجاء الحق سبحانه بما قاله: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾[١٤٨] أي قال لهم: هل تذكرون ما فعلتم بيوسف إذ ألقيتموه في الجب وبأخيه بنيامين إذ كنتم تعذبونه حال شبابكم وطيشكم والغرض تعظيم الواقعة كأنه يقول ما أعظم ما ارتكبتم تجاه يوسف وأخيه قال أبو السعود: وإنما قاله نصحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم وقول يوسف عليه السلام لهم هذا الأمر بهذه الصيغة من التلطف إنما يعبر أيضا عن تأثره بشكواهم ثم تبسمه لهم وظهور ثناياه دفعهم إلى تذكره قال ابن عباس رضي الله عنهما: فتبسم يوسف فشبهوه بيوسف فقالوا له على جهة الاستفهام: " أئنك لأنت يوسف...." ودار بينهم وبينه الحوار الذي جاء في الآية التالية: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١٤٩] حينها قالوا: استفهاما بلهجة التعجب أأنت يوسف حقا فقال: أنا يوسف وهذا أخي الشقيق قد منَّ الله علينا بالخلاص من البلاء والاجتماع بعد الفرقة والعزة بعد الذلة وقوله: "إنه من يتق...." أي: من يجعل بينه وبين معصية الله وقاية ويخشى الله ويراقبه ويصبر على البلايا والمحن فإنه سبحانه لا يضيع أجر المحسنين الذي يتقونه وصاروا بتقواهم مستحقين لرحمته وإحسانه في الدنيا والآخرة ويأتي قول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك لينقل لنا ما قاله أخوة يوسف في هذا الموقف: ﴿قَالُوا تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[١٥٠] وتالله قسم بالله.

ـ فائدة: اعلم أن أحرف القسم ثلاثة الواو والباء والتاء فالواو لا تدخل إلا على الاسم الظاهر نحو: والله والطور، والتين والزيتون والباء تدخل على الاسم الظاهر نحو: بالله لاجتهدنّ وعلى الضمير نحو: بك لأضربنّ الكسول علما أنه لا يجوز الحلف إلا بالله لكننا نبين في أن الباء تدخل على الاسم الظاهر والضمير فنحن لا نحلف إلا بالله والتاء لا تدخل إلا على لفظ الجلالة كما في هذه الآية.

١٤٨ـ يوسف:٨٩

١٤٩ـ يوسف:٩٠

١٥٠ـيوسف:٩١

ونعود إلى ما كنّا بصدده بعد خروجنا عن الموضوع بفائدة لغوية فقوله سبحانه: "آثرك الله علينا ...." أي فضلك علينا بالتقوى والصبر والحلم والعلم ورفعك إلى هذه المنزلة وقوله: "وإن كنّا لخاطئين" وحالنا وشأننا أننا كنا مذنبين بصنيعنا تجاهك ويقول الحق ما جاء على لسان يوسف عليه السلام لأخوته بعد أن أقرّوا بالخطأ: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[١٥١] أي لا عتب ولا توبيخ ولا عيب عليكم اليوم "يغفر الله لكم" وهذا دعاء لهم بالمغفرة وهذا زيادة تكريم لما فرط نحوهم وهو أرحم الراحمين. ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١٥٢] قال ابن جرير: ذكر أن يوسف لما عرّف على نفسه أخوته سألهم عن أبيهم فقالوا: ذهب بصره من الحزن فعند ذلك أعطاهم قميصه، وأراد يوسف تبشير أبيه بحياته وإدخال السرور عليه بذلك قوله سبحانه: "يأت بصيرا ....." أي يرجع إليه بصره وجيئوني بجميع الأهل والذرية من أولاد يعقوب. الطبري: ١٣\٥٧ ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾[١٥٣] قال: لمّا عادت العير من مصر إلى الشام قال: يعقوب عليه السلام لمن حضر عنده من أهله وقرابته وأحفاده " إني لأجد ريح يوسف" والمعروف أن القميص الذي أرسله مع أخيه الأكبر يحمل رائحة يوسف لكن الذين حول يعقوب من أقربائه لم يصدّقوا قوله فأضاف: "لولا أن تفندون "٩٤ أي: لولا اتهامكم لي بالخرف، لأن التفنيد هو الخرف. ولم يكن هذا القول مع أولاده لأنهم كانوا غائبين بدليل أنه عليه السلام قال: اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه وأمّا قدر المسافة التي شمّ يعقوب الريح قميص يوسف فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف وبينهما مسيرة ثمان ليال قاله القرطبي ٢٥٩/٩ ويردّ من كان من أهل يعقوب معه على قوله بأنه لفي ضلاله القديم

١٥١- يوسف:٩٢

١٥٢- يوسف:٩٣

١٥٣- يوسف:٩٤

﴿قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ﴾١٥٤ أي: إنك لفي حبك القديم لا تنسى ولا تذهل عنه قال الحسن: إنما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات ويأتي البشير ليعقوب يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾١٥٥ أي فلمّا جاء المبشر بخبر حياة يوسف السار قال مجاهد: كان البشير أخاه يهودا الذي حمل قميص الدم قال: أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبت به ملطخا بالدم. قاله ابن عباس رضي الله عنهما. فلمّا وصل البشير طرح القميص على وجه يعقوب عليه السلام فارتدّ بصيرا أي عاد بصيرا لما حدث له من السرور والانتعاش. وقال يعقوب عندها لأبنائه ألم أخبركم بأني أعلم من الله ما لا تعلمون.. من حياة يوسف وأنّ الله سيرده عليّ لتتحقق الرؤيا قال المفسرون: ذكّرهم بقوله "إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون " قال الفخر الرازي: يروي أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر قال: ما أصنع بالملك ! على أيّ دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة ثم إن أولاد يعقوب أخذوا يعتذرون إليه ﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾١٥٦ أي: طلبوا منه الاستغفار لهم وهم هنا يقرّون بالذنب ويحدثون والدهم بنداء الأبوة كي يستغفر لهم ما ارتكبوه في حق يوسف وأخيه وبحقه بسبب إيذائهم له حتى أنّ عينيه ابيضت من الحزن ونلحظ هنا قولهم إنا كنا خاطئين أي أنهم كانوا يعلمون الصواب ولم يفعلوه ويأتي الحق سبحانه بما قاله يعقوب: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾١٥٧. ونلاحظ هنا أنه وعدهم بأنه سيستغفر لهم فقال: سوف أستغفر لكم ربي وسوف تدل على الاستقبال قال ابن عباس: أراد أن يستغفر لهم في وقت السحر لأن هذا الوقت أبرك الأوقات رجاء الإجابة وفي رواية أخرى أخر الاستغفار إلى ليلة الجمعة قاله الفخر الرازي عن ابن عباس رضي الله عنهما "إنه هو الغفور الرحيم"

١٥٤- يوسف:٩٥

١٥٥- يوسف:٩٦

١٥٦- يوسف:٩٧

١٥٧-يوسف:٩٨

وينقلنا الحق سبحانه من بعد ذلك إلى لحظة اللقاء بين يوسف عليه السلام وأهله كلهم بعد أن انتقلوا إلى حيث يعيش يوسف فيقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[158] ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٥٩﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[160] نقول في تفسير هذه الآيات على سبيل الاختصار وعدم التطويل ما يلي: (تهيأ يعقوب عليه السلام وبنوه وأهله للسفر وشدوا رحالهم إلى مصر فلما بلغوها دخلوا على يوسف فآوى إليه أبويه: يعقوب وزوجته خالة يوسف لأن أمه ماتت في نفاس بنيامين ويوسف صغير ورفعهما على العرش وبعد ذلك نزلوا فخروا جميعاً سجدا لله سبحانه وهو شكر لله الذي جمع شملهم أو كان السجود تحية له ونسخ هذه السجود في شرعنا وأعطيت هذه الأمة السلام وهي تحية أهل الجنة. وقال لأبيه: يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي تتحقق وقد أكرمني وأحسن إلي فأظهر براءتي وخلصني من السجن وأتى بكم من البادية لنلتقي بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي وهذا كله من لطف الله بي وبكم إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ثم يتابع الحق سبحانه واتجه يوسف إلى الله يشكره قائلا: ربي ما أكثر نعمك علي وما أعظمها لقد منحتني الملك ووهبتني من العلم الكثير يا خالق السموات والأرض أنت مالك أمري ومتولي نعمتي في حياتي وبعد مماتي توفني مسلما وألحقني بالصالحين من آبائي إبراهيم وإسحاق ومن قبلهم واحشرني في زمرتهم.. ثم يوجه الله الكلام بعد ختام هذه القصة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[161]

١٥٨- يوسف:٩٩

١٥٩- يوسف:١٠٠

١٦٠- يوسف:١٠١

١٦١- يوسف:١٠٢

ذلك الذي قصصنا عليك أيها النبي (الرسول الكريم من أخبار الماضي البعيد لم يأتك إلا عن طريق الوحي منها وما كنت حاضرا إخوة يوسف وهم يدبرون له المكائد وما علمت بكيدهم إلا عن طريقنا ـ انتهت قصة يوسف وهي أكبر قصة في القرآن الكريم ثم يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[١٦٢] وهذه تسلية من الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فيقول: فأنت يا محمد لن تجعل كل الناس مؤمنين ولو حرصت على ذلك وكان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على أن يؤمن قومه فهو منهم. ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾[١٦٣] أي لا تطلب منهم أجرا على الهداية ولا مالا ولا منفعة إنك إنما تدعوهم أن يتبعوا أمر ربك وفي ما تدعوهم إليه تذكير وموعظة لإرشاد العالمين كافة إلا لهم خاصة ويقول سبحانه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[١٦٤] أي وما أكثر الدلائل المبثوثة في هذا الكون على وجود الخالق ووحدانيته وكماله إنها معروضة للأبصار والبصائر، في السماوات والأرض، وهم يمرون عليها صباح مساء ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعائها ولا يحسون إيقاعها العميق... ويتابع الحق خطاب نبيه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[١٦٥] أي لا يؤمن أكثر هؤلاء المكذبين من قومك إلا إذا أشركوا مع الله غيره فإنهم يقرون بأن الله هو الخالق الرزاق ويعبدون معه الأصنام ذكره القرطبي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومن ذلك قولهم في تلبيتهم: "لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك نملكه وما ملك" – ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[١٦٦] أفأمن هؤلاء الذين يؤمنون بالله لكنهم يشركون به غيره في العبادة أن تأتيهم عقوبة شاملة تغشاهم أو تأتيهم الساعة فجأة حيث لا يتوقعون

١٦٢- يوسف:١٠٣

١٦٣- يوسف:١٠٤

١٦٤- يوسف:١٠٥

١٦٥- يوسف:١٠٦

١٦٦- يوسف:١٠٧

ويأتي قول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١٦٧] أي قل يا محمد هذا طريقي ومنهاجي واضحة مستقيمة لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني – القرطبي٩\٢٧٢ أي أدعو إلى عبادة الله وطاعته على بيان وحجة واضحة أنا ومن آمن بي وسبحان الله وما أنا من المشركين أي وأنزهه سبحانه عن الشركاء والأنداد وأبرأ من أهل الشرك ولست منهم.

ـ وكان المشركون في مكة يقولون: لو أراد الله الإرسال لبعث ملكا كما حكى سبحانه عنهم بقوله (لو شاء ربنا لأنزل ملائكة...) فرد عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١٦٨] أي لم نرسل إلى الأمم السالفة إلا رجالا ننزل عليهم الوحي فلم يكونوا ملائكة ولا خلقا آخر بل بشرا مثلك يا محمد.

ـ ثم أتبع الله سبحانه ذلك بتأنيبهم على تكذيب الرسول بتوجيه نظرهم إلى آثار الغابرين كيف تركوا ديارهم خاوية على عروشها فقال: (أفلم يسيروا في الأرض.... الخ) أي أفلم يسر هؤلاء المشركون المكذبون في الأرض فينظروا كيف أهلكنا الذين كفروا قبلهم كقوم لوط وصالح وسائر من عذبهم الله من الأمم (ولدار الآخرة.....) أي الدار الآخرة خير للمؤمنين المتقين من هذه الدار التي ليس فيها قرار أفلا تعقلون فتؤمنون...

ـ ويقول سبحانه من بعد ذلك: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾[١٦٩]

– أي: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وتيقنوا أنهم كذبوهم والظن هنا بمعنى اليقين فعند ذلك جاءهم نصرنا للرسل بالنجاة ولأقوامهم بالهلاك لا مرد لبأسنا ويقول الحق سبحانه!خاتما السورة !

١٦٧- يوسف:١٠٨

١٦٨- يوسف:١٠٩

١٦٩- يوسف:١١٠

بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١٧٠] إن في أخبار الأنبياء وأقوالهم عبرة وموعظة يستنير بها أصحاب العقول وما كان هذا القرآن وأحاديث تختلف ولكنه كان مصدقا لما سبقه من الكتب السماوية المنزلة من قبل "وتفصيل كل شيء" أي وتبيين كل ما يحتاج إلى تفصيله في أمور الدين إنه هدى لمن تدبره وأمعن النظر فيه ورحمة عامة للمؤمنين الصادقين.

لطيفة: قال سبحانه (وتفصيل كل شيء) وقد حدث أن سأل سائل الإمام محمد عبده سؤالا فقال: (كم رغيفا في كيلة القمح فذهب الشيخ إلى خباز وسأله هذا السؤال فأجاب الخباز.. فقال السائل: ولكنك لم تأت بالإجابة من القرآن؟ والله يقول (وتفصيلا لكل شيء) فقال الإمام محمد عبده: لماذا لا تذكر قول الله: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) وأنا لا أعلم الإجابة فسألت من يعلم بها.

ـ وهكذا نعلم أنه سبحانه لم يفرط في الكتاب من شيء

ـ وهكذا إخواني الكرام تختتم سورة يوسف بمثل ما بدأت وتجيء التعقيبات في أول القصة وآخرها وبين ثناياها متناسقة مع موضوع القصة، وطريقة أدائها. وهذه القصة فيها مشاهد وألوان من الشدائد ثم كانت العاقبة خيرا للذين اتقوا ربهم وهذا هو وعد الله الصادق الذي لا يخيب ولقد بدأت السورة بقوله تعالى: (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) وختمت بقوله تعالى: (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون).

ـ هذا وقد تمت سورة يوسف إخواني وقد كانت تثبيتا لفؤاد النبي صلى الله عليه وسلم فقد قال سبحانه (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) وكانت كذلك مسامرة للنبي عليه الصلاة والسلام بسبب إخراج قومه له وقلة من يستجيب إليه عليه الصلاة والسلام.

١٧٠- يوسف:١١١

فوائد وأسرار سورة يوسف عليه السلام

لو استعرضنا سورة يوسف من أولها إلى آخرها لوجدناها مليئة بالعبر والعظات والفوائد واللطائف والأسرار والحكم وإليك بعض من هذه الحكم والفوائد :

لماذا سميت قصة يوسف في القرآن الكريم أحسن القصص في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[١٧١] يقول الشعراوي في تفسيره (هي أحسن القصص لأنها اشتملت على عبر متعددة بدءاً من حسد إخوته له والقائه في الجب والكيد له، ووضعه سجيناً مظلوماً، وموقف يوسف عليه السلام من الافتراءات الكاذبة والاعتزاز بالحق تم له النصر والتمكين في الأرض وكيف ألقى الله سبحانه وتعالى محبة الناس له ليجعل كل من يلتقي به يحب خدمته. وكيف صان يوسف عليه السلام إرث النبوة بما فيها من سماحته وقدرته على العفو عند المقدرة فعفا عن إخوته[١٧٢]، وأنا أقول سميت أحسن القصص لأنها اشتملت على الأوامر والنواهي النفسية وذلك لأن العبادات النفسية تتعامل وتتفاعل مع النفس فالأوامر النفسية تتفاعل مع النفس المطمئنة. والنواهي النفسية تتعامل مع النفس الأمارة بالسوء وتحجب مشتهياتها وقل أن ينجح الإنسان فيها. ومن المعلوم أن العبادات النفسية أو الأخلاقية يجب إتباعها لأن الله تعالى أمرنا بها والنواهي النفسية يجب اجتنابها لأن الله تعالى أمرنا بعدم فعلها. ومن أهم المساوئ التي اشتملت عليها السورة هي كما يلي: ك (البغض، والحسد، والحقد، والغضب، وقساوة القلب، وإفشاء السر، والظلم، والجهل بالعلوم الدينية) وأما المحاسن النفسية التي اشتملت عليها السورة فهي (المحبة، والعطف على الأخوة وخاصة إذا كانوا صغارا، والعلم بالأمور الدينية وكظم الغيظ، والعفة عن الشهوة الجنسية المحرمة مهما كانت الأسباب ولو أدى ذلك إلى ضرره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل مجلس، والحكم بالعدل، والعفو عند المقدرة، والصبر والشكر على المكارة والبلاء والمحن في جميع الأمور ومراقبة الله تعالى في كل الأمور وكتم السر والحلم، وكظم الغيظ، والرضا بقضاء الله تعالى والقدر خيره وشره من الله تعالى ولما كانت العبادات النفسية تخالف النفس الأمارة بالسوء وتحجب مشتهياتها لذلك فإن المجاهدة فيها كان صعبا وقل أن ينجح الإنسان فيها، ولذلك كان الثواب والجزاء فيها يوم القيامة عظيما. وكان من نتيجة الصبر والرضا بالمقدرات العقبى الحسنة في الدنيا والآخرة كما رأينا في نتيجة صبر يوسف عليه السلام كيف كان في أواخر أيامه من السعداء في الدنيا والآخرة

١٧١- يوسف:٣

١٧٢- من كتاب القصص القرآني – عرض وقائع وتحليل أحداث – طبع دار العلم بدمشق

٢. لو استعرضنا حياة يوسف عليه السلام في السورة لوجدنا أن حياته من أولها إلى آخرها تتضمن الرؤيا المنامية التي رآها في بدء حياته بقوله تعالى (يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين).

٣. ومن محبة الله تعالى ليوسف أنْ أنزل الله عليه البلاء والمحن في السراء والضراء، والرضا بما جرت عليه المقادير من غير تسخط ولا تذمر، ولا جزع، ولا يأس، ولا قنوط، ولا إحباط، وهذا هو سر جمال الصبر الجميل، ولا يكون هذا الصبر الجميل إلا بمراقبة الله تعالى في السر والعلن، وهذه هي مرتبة الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. وقد قال صلى الله عليه وسلم: (إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه وإن رضي اصطفاه) ولا يمكن تفسير هذه الرؤيا إلا برفع شأن يوسف عليه السلام وقدره ومحبته عند الله وعند البشر فأما رفع شأنه وقدره ومحبته عند الله تعالى فقد قربه وجعله نبيا بقوله تعالى (وكذلك يجتبيك ربك) وهي تفيد بأن الله تعالى أحاطه بالمحبة الخالصة وقربه منه ليجعله من خلاصة أصفياء البشر فيودع فيه من الصفات التي يحبها الله تعالى له من الصدق والأمانة والقوة والإخلاص والصلاح والتقوى وبعد النظر وفصاحة اللسان وحسن التدبير في عواقب الأمور الحميدة، ويفسر هنا الاجتباء بالنبوة وقد مر يوسف عليه السلام في حياته بعدة امتحانات شديدة وصعبة وصبر عليها ورضي بها بدءا بحقد وحسد الأخوة وكيدهم ومرورا في إلقائه في الجب وإخراجه منه وبيعه بيع العبيد، ومحاولة الغواية له من امرأة العزيز، بمراودتها له عن نفسه، ثم إلقائه في السجن مظلوما، ثم التغريب عن أهله ووطنه، شأنه في هذه الابتلاءات شأن جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام، وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أعظم الناس بلاء، وكان كل نبي يُمتحن حسب بيئته وعصره. مما رفع شأنه وقدره ومحبته عند الناس وذلك في قوله تعالى: (**ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم**) وإذْ تبدأ الآية بتعداد فضل الله تعالى على يوسف عليه السلام من تأويل الأحاديث وما أجملها من نعمة فقد تكفل الله تعالى بتعليمه فهو لم يجعل له معلماً مخصوصاً يعلمه بل شاء الله تعالى أن يلقي في قلبه من العلوم الإلهية الخالصة التي لا طريق للشيطان إليها، وتلك عصمة جوهرية في نوعية العلوم التي اختصه بها،

فما حدث يوما أن أخطأ في استعمال العلم الذي أعطاه الله تعالى إياه ومن المعلوم أن علم الرؤى لغة خاصة غامضة ما ألف الناس فهمها إذ إنها تخرج عن ضوابط اللغات المختلفة أو المكتوبة وتكون لا إرادية يتلقى الرائي خلال نومه معلومة تكون مشوشة أو صعبة الربط ويعلمك من تأويل الأحاديث فهي أولاً تطلق على الرؤى المنامية وهذا هو المقصد الأول من معانيها وهي تطلق أيضا على مجمل الكلام فتكون جمعا لكلمة الحديث والنعمة الثالثة (ويتم نعمته عليك تعني الرفعة والسؤدد وإلقاء محبة الناس عليه بحيث كل من رآه يحبه ويريد خدمته، وهذا أعلى درجات إكرام الخالق سبحانه وتعالى لعبد من عباده بأن يتم نعمته عليه وأي نعمة توازي إتمام النعمة عليه؟ فهو في هذا، في صونه ورعايته وطمأنينة نفس وهناء وحفظ كامل من وسوسة الشيطان وحفظ من المهالك ومن أوجه النعم عليه إلقاء السكينة في قلبه فلا يخاف من شيء ولا يخاف على شيء ومنها تمييزه بالعلم الذي يحتاج إليه في عصره وحفظ هذا العلم من تداخلات الشيطان فيه فلا يحزنه عليه ولا يستعمله فيما لا يرضى الله تعالى إلا بعد ما ألقى الله تعالى عليه محبته ومحبة الناس عليه، ومرّ بأيام طويلة وأحداث كثيرة حتى تحقق هذا الحلم.

٤- لقد كان أخوة يوسف عليه السلام نموذجاً خاصاً بشرياً في النظر إلى أخ صغير والتعامل معه كما كانوا نموذجاً خاصاً للأبناء الذين يتعاملون مع أبيهم النبي يعقوب عليه السلام بجلافة وسوء أدب واتهام والتآمر والحسد وسوء الظن، وخطأ النظر وضلال الحكم والكذب والافتراء من هؤلاء؟ إنهم أصول وأجداد بني إسرائيل الذين عرفوا بعد ذلك باسم اليهود ومن هذا الحديث تؤخذ عدة دلائل وآيات على الطبيعة الحاقدة لهؤلاء تلك الطبيعة التي تقوم على الكيد والحقد والرذائل والنقائص. إن موقف هؤلاء الأخوة من أخيهم يمثل البداية الحاقدة لهذا النموذج البشري الخاص، فإذا كان الأجداد والأصول الإسرائيليون على هذه الدرجة من الحقد والكيد على أخيهم فكيف سيكون حقد وكيد ولؤم الأجداد القادمين من اليهود على غيرهم؟ ولا يزيل هذه الرذائل والنقائص من نفوسهم إلا الصدق في الإيمان بالله تعالى والإحسان في عبادة الله تعالى، والنجاح في التربية الإيمانية، وهذا لم يتحقق إلا في نماذج قليلة من بني إسرائيل أو اليهود وهم الأبناء فيهم وأتباع الأنبياء الصادقين المخلصين، الذين دخلوا في الإسلام بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، إننا نستثني هذه النماذج القليلة المؤمنة من ذلك الحقد والكيد والتآمر لإيمانهم واستقامتهم، أما الجمهور الكبير من الإسرائيليين واليهود فهم أكثر من أجدادهم وأصولهم كيداً وقد رد أبوهم يعقوب عليه السلام على اتهامهم له (مالك لا تأمنا على يوسف).

بقوله (إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) ويعقوب عليه السلام يرسله معهم مكرها كأنه يقول لهم: إن عدم إرسالي يوسف عليه السلام ليس تخويفا لكم ولكن لعدم صبري على فراقه. ففي قوله تعالى: (قال: قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب) ففي الآية تدلنا على أنه كانوا مختلفين في إبعاده عن والده. واتفق المفسرون على إلقاء يوسف عليه السلام في الجب وكان رأسه ضيقاً وقعره واسعاً. وسمي غيابة لأنه يغيب أثر وخبر من يُلقى فيه عن أنظار الناس. وقرأ نافع في غيابات الجب، والباقون غيابة الجب، وبناء على قراءة نافع غيابات أقول بناء على هذه القراءة أن الجب عبارة عن أقطار ونواحي فيكون فيها معنى غيابات ينتقل في إلقائه من ظلمة إلى ظلمة أكثر من الأولى وهكذا ظلمات بعضها فوق بعض إلى آخر ظلمة وهي أسفل البئر والله أعلم.

٥- هل تعلم أن بلاء النبي يعقوب عليه السلام في ذلك أن أموره الدنيوية كانت تأتي بعكس ما يريد، فقد اجتهد بحسب قلبه السليم بأن النبي يوسف عليه السلام وأخاه بنيامين عندما سلمهما إلى إخوتهم سيرجعون بهما لكن كان عكس ما يريد فلم يرجعوا بهما. وزاد حزنه حزناً وهمه هماً عندما لم يجد في البيت من يسليه أو بعبارة أخرى: (لم يكسّر عليه همه في اللغة العامية ويذهب حزنه). فإذا وُجد مِنَ الناس من تأتيه أموره بعكس ما يريد وصبر على ذلك فله من الأجر والثواب عند الله مثل أجر صبر يعقوب عليه السلام. وكذلك النبي نوح عليه السلام كان ابنه كنعان عاقاً ومخالفاً لأمر والده فلم يمتثل أمره وكان يخالف أمر والده، وكان من نتيجة ذلك أن ابنه كان من الخاسرين فإذا وُجد من الناس من كان ابنه عاق وصبر عليه كان له مثل أجر النبي نوح عليه السلام يوم القيامة، أيضاً وكذلك النبي أيوب عليه السلام أصابته الأمراض والأسقام في جسمه وصبر عليها فإذا وجد من الناس من أصابته الأمراض والأسقام في جسمه وصبر عليها كان له من الأجر والثواب عند الله مثل أجر النبي أيوب على صبره أيضاً. وكذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أصابه من الفقر وعداوة الأهل والأقارب والعشيرة الشيء الكثير وصبر عليها، فإذا وجد من الناس من أصابه مثل ما أصاب محمداً صلى الله عليه وسلم وصبر عليها كان له من الأجر والثواب عند الله مثل ثواب وأجر محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة.

٦- وفي قوله تعالى: (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) إننا نستصحب أصل يوسف ونحن نقرأ كلمات الآية فهو غلام كريم سليل آباء كرام وأبناء عظام ولكنه الآن في مصر يباع بأرخص الأثمان. إن كل كلمة في الآية تشير إلى زهد بائعيه، لقد باعوه بثمن بخس ناقص تافه لا اعتبار له عندهم ولا قيمة وهذه الدراهم معدودة وليست موزونة وهكذا بيع يوسف عليه السلام عبداً رقيقاً في مصر.

٧- حقق[١٧٣] عزيز مصر في مسألة زوجته مراودتها ليوسف عليه السلام على ضوء ما قدره ذلك الشاهد الحكيم ونظر في القرينة القميص وعرف أنّ امرأته هي المراودة وأن غلامه عفيف بريء، لوكان الأمر عند رجل آخر وقف على هذه الجريمة من امرأته لثار الدم في عروقه وانتقم لشرفه وقتلها وغسل عاره. لكن العزيز المسؤول الأول في مصر الذي يمثل ما يسمونه الطبقة الراقية الحاكمة في مصر تعامل مع الموضوع بأعصاب متجمدة باردة فلا قيمة عنده للشرف والعرض ولهذا اكتفى بقوله لامرأته: (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم). هذه الجملة الباردة الصادرة عن إنسان بارد ديوث يتأكد من وجود الفاحشة في زوجته فيمنحها ما يشبه الوسام ويقدم لها الثناء، ويشهد لها بأنها امرأة فاتنة ماكرة تقدر على الإغواء وكأنه يقول لها كلكن هكذا يا بنات حواء ذوات كيد عظيم وفتنة طاغية، ولهذا لا غرابة أن يصدر عنك هذا الكيد والإغواء والفتنة، إن هذا كلام رجل ديوث يثني على فتنة امرأته الماكرة، أخبرنا عنه القرآن الكريم ولم يعتمده أو يقرّه، ولهذا الأولى أن لا يعمم على جميع بنات حواء، والأولى أن لا تعتبر هذه الجملة إدانة لجميع النساء ونجد أن عزيز مصر نصح يوسف عليه السلام قائلا: (يوسف أعرض عن هذا) أي انسَ يا يوسف هذا الأمر وأعرض عنه ولا تعره اهتماما وكأنه لم يحصل، ثم توجه إلى امرأته قائلا: (واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين)، ما أبرد هذا الوعظ منه لامرأته التي ثبت له جريمتها لقد أخطأت فيما فعلت مع يوسف عليه السلام وارتكبتِ أمراً خاطئا كان الأولى ألا تفعليه ولهذا عليك بالاستغفار لهذا الذنب الذي صدر منك، هذا فقط ما تقوم به؟ هذا فقط ما تقوله؟. هذه هي طبيعة ما يسمى بالطبقة الحاكمة الراقية في القديم والحديث وهذا هو موقف رجالها من فضائحهم التي تزكم روائحها الأنوف.

١٧٣- من كتاب القصص القرآني عرض وتحليل أحداث طبع دار القلم بدمشق.

٨- لما١٧٤ خرج يوسف عليه السلام على النسوة المنهمكات في استعمال السكاكين، فوجئن به وبهرتهن طلعته، وسحرهن جماله ودهشن ونسين أنفسهن وأيديهن وسكاكينهن قال تعالى: (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم). صحيح أن النسوة كافرات غير مؤمنات بالله تعالى لكنهن يعلمن أن الله تعالى هو الخالق فهو الذي خلق هذا الفتى الجميل وهو قادر على خلقه بهذا الجمال، حكيم في منحه هذا الجمال الساحر الباهر الفتان، ثم اتبعن ذلك بأن هذا الفتى الواقف أمامهن ليس بشرا، فمقاييس جماله ليست مقاييس جمال البشر، لقد فاق أكثر البشر جمالا في جماله وحسنه، وقد شبهن يوسف بالملائكة في الجمال لأن الملائكة هي مضرب الأمثال في الجمال، فإذا أريد تشبيه إنسان

بآخر في جماله يشبهنه بالملائكة. وتنزيه النسوة الكافرات لله في قولهن: (حاشا لله) وتشبيههن يوسف عليه السلام بالملائكة في قولهن (ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) على أنهن كن يعرفن الله تعالى ويعرفن الملائكة ويعرفن جمال الملائكة رغم كفرهن وأنهن عرفن ذلك إما بالفطرة وإما بما وصل إليهن من مسائل الإيمان عن طريق المؤمنين المقيمين في مصر أو المترددين عليها، روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: (أعطي يوسف عليه السلام شطر الحسن) رواه البخاري برقم (٥١٧) ومسلم برقم (١٦٢) وانظر الأحاديث الصحيحة برقم (١٥٥) و(١٨٠) و(٨٦). إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرنا في هذا الحديث أن الله تعالى قد أعطى يوسف عليه السلام نصف الحسن والجمال الذي أعطاه للناس فنصف الجمال مقسم بين الناس والنصف الثاني ليوسف عليه السلام.

٩- ومن قوله سبحانه وتعالى (ليسجننه حتى حين) نلاحظ من هذه الجملة أنّ يوسف عليه السلام كان موقوفاً وليس محكوما عليه بالسجن، لأن القوم الظالمين لم يصدروا عليه حكما بالسجن مدة محددة أي لم يحددوا السنوات التي سوف يسجن فيها وإنما وضعوه في السجن لمدة مفتوحة تنتهي بانتهاء القضية عند الناس، فطالما أن الألسن تتحدث بقضية امرأة العزيز مع فتاها فلا بد أن يبقى يوسف عليه السلام في السجن، فإذا نسي الناس القضية فلا مانع أن يخرج من السجن، ومعنى ذلك (ليسجننه) حتى حين انتهاء الحديث في المسألة. وإن الظالمين الطغاة في العصر الحديث الذين يكثرون من إيقاف المعارضين في السجون إنما يقتدون بالظالمين السابقين الذين أوقفوا يوسف عليه السلام في السجن حتى حين.

١٧٤- المصدر السابق

والإيقاف أقسى وأشد من الحكم لأن المحكوم سنوات محددة يعرف متى يخرج من السجن، أما الموقوف فلا يعرف متى يخرج لأن أمر إخراجه محكوم بمزاج الظالم المنتقم. وهكذا ينتقل يوسف إلى محنة جديدة قاسية.

١٠- نلاحظ أن رؤيا الملك تشير إلى الوضع الزراعي والاقتصادي خلال الخمس عشرة سنة القادمة بما فيها من رخاء ثم قحط ثم غوث وإن الله تعالى الحكيم الذي يفعل ما يشاء قد قدر أن تمر مصر بهذه المحن الثلاث خلال الخمس عشرة سنة القادمة رخاء ثم قحط ثم غوث وأوحى الله تعالى بذلك في الرؤيا المنامية رغم أنه ملك كافر كان يدّعي الربوبية، وهذا معناه أن الرؤيا الصادقة ليست مقصورة على الصالحين فقط، فقد يرى بعض الكفار رؤى صادقة تصدق على الواقع وتكون إيحاء لهم من الله تعالى رغم كفرهم لحكمة يريدها الله سبحانه وتعالى.

١١ - وخرج يوسف من السجن وكلم يوسف عليه السلام الملك بعزة ولاحظ الملك كلام يوسف عليه السلام الصدق والجدية وأنه أهل للتكريم والتفضيل عندها أخبر الملك يوسف بالأمان: (فلما كلمه قال: إنك اليوم لدينا مكين أمين) وكأنه يقول له أنت بعد اليوم مكرم وليس بعد اليوم عبداً رقيقاً ولكنك أنت اليوم في تكريم ومن رجالنا وأنت (مكين) متمكن من الحرية والمسؤولية وأنت (أمين) في أمان واطمئنان ماذا كان رد يوسف عليه السلام؟ أنه لم يسجد شكراً كما يسجد رجال الحاشية المتملقون للطواغيت ولم يقل له: عشت يا مولاي وأنا عبدك الخاضع، رد يوسف عليه السلام على تكريمه (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) أنه حفيظ يحفظ الأمانة والعهد ويحفظ المسؤولية والمنصب ويحفظ البلاد فلا يضيعها ويحفظ الناس فلا يتركهم مع الجوع فليس هذا غُنْماً يطلبه يوسف عليه السلام فان التكفيل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد أنه غنيمة إنما هي تبعة يهرب منها الرجال، لأنها قد تكلفهم قطع رؤوسهم، والجوع كما يقولون كافر يمزق أجسام الجماهير الجائعة في لحظات. أراد يوسف عليه السلام أن يكون على خزائن الأرض ليقدم خدمة للناس وليحسن إدارة أمور البلاد الاقتصادية والمالية في سنوات المحنة. وهكذا أصبح يوسف عليه السلام مطلق اليد في الحكم عندما ولي منصب عزيز مصر ولم يكن مجرد تابع للملك منفذ لشرعه ونظامه ولكنه كان صاحب التصرف والكلمة والقرار يحكم ما يشاء في البلاد وينفذ من القوانين والتشريعات ما يشاء بدون إنكار أو اعتراض أو إلغاء من قبل الملك، لقد أطلق الملك يد يوسف عليه السلام في الأمور كلها فكان يوسف هو الحاكم الفعلي في مصر والملك مجرد الرمز في البلاد ويبدو أن الملك

كان يملك ولا يحكم وأن الحكم الفعلي كان بيد عزيز مصر ومما يدل على هذا غياب الملك عن أحداث ومشاهد القصة. لقد عين الملك يوسف في منصب عزيز مصر ثم توارى في الظل وكان الحكم والفعل والقرار ليوسف عليه السلام والراجح أن يوسف عليه السلام كان نبيا عندما ولي منصب عزيز مصر وهذا معناه أنّ يوسف عليه السلام كان يحكم البلاد بشرع الله تعالى ويدير الأمور على منهاج الله تعالى، ولم يكن ينفذ تشريعات الملك وقوانينه فهو نبي، والنبي عندما يلي الأمور لا يحكم بغير شرع الله تعالى. إن الله سبحانه وتعالى هو الذي مكن ليوسف عليه السلام في الأرض بقوله تعالى: (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين). ولقد مكن الله تعالى ليوسف تمكينين، التمكين الأول: استقرار يوسف في بيت العزيز. والتمكين الثاني: استقرار يوسف عليه السلام في منصب عزيز مصر وهو ثمرة التمكين الأول.

١٢- لقد كان يعقوب عليه السلام منفردا بآلامه وهمومه وأحزانه يكظمها بأعماق قلبه ونفسه وشعوره وكيانه فأثر هذا الكظم والتفرد على أعصاب عينيه وغطى بياضهما على سوادهما وأصبح ضعيف البصر (وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم). لم يشعر يعقوب عليه السلام بمشاركة من حوله له في همومه وأحزانه وإذا شكى لأحد أولاده همه يجد عنده اللوم والتقريع، ولهذا كان منفردا بهذه الآلام لا يكلم أبناءه بما يعانيه ولا يجد مؤانساً ولا مشاركاً، ولذلك لم يجد لأحزانه متنفساً.

١٣- نستنتج من قصة يوسف عليه السلام أن طول البلاء ينسي ذكر الله تعالى ويقول فخر الدين الرازي في تفسيره والذي جربته من أول عمري إلى آخره أن الإنسان كلما عول في أمر من الأمور على غير الله تعالى صار ذلك إلى البلاء والمحنة والشدة والرزية. وإذا عوّل العبد على الله تعالى ولم يرجع على أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه إلى سبعة وخمسين عاماً استقر قلبي على أنه لا يصلح للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله تعالى وإحسانه. وعن قتادة قال: إن يوسف عليه السلام عوقب بسبب رجوعه إلى غير الله

تعالى عندما قال: للذي نجا من السجن (اذكرني عند ربك) وقال: يوسف عليه السلام طول البلاء أنساني ذكر المولى.

١٤- وفي قوله تعالى (فلما جاءه البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا) أقول بما أن يوسف عليه السلام كان نبياً فتكون له معجزة لقد جاءه ذلك من الله تعالى إما بواسطة وحي أو الهام رباني، وإلا ما علاقة القميص بارتداد البصر.

١٥-ومن الفوائد التي في هذه القصة أنه لا دافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدر الله تعالى وأنه تعالى إذا قضى أمراً للإنسان بخير ومكرمة فلو أن أهل الأرض اجتمعوا عليه لم يقدروا على منعه.

١٦-ومن الفوائد أن الصبر مفتاح الفرج كما في حق يعقوب عليه السلام فإنه لما صبر فاز بمقصوده، وكذلك في حق يوسف عليه السلام فإنه لما صبر فرج عنه، وهنا يجب أن يدرك الإنسان أن الله معه وأن الفرج آت لا محالة إن شاء الله تعالى كما فرج عن النبي يعقوب ويوسف عليهما السلام فإن أتى بالمعصية يتوب مباشرة فيتوب الله عليه والله أعلم.

١٧- يلاحظ بعض الناس أن النبي يعقوب عليه السلام لم يصبه من الأمراض من جراء حزنه على يوسف إلا نزول الماء الأبيض على عينيه من قوله تعالى: (وتولى عنهم وقال: يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) لكن في الحقيقة أصابه أمراض أخرى جسمية ونفسية لقوله تعالى على لسان أولاده (قالوا: تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) أي لا تزال تذكر يوسف عليه السلام وما حدث له حتى تشرف على الهلاك وفي قاموس (لسان العرب) الحرض: هو الفساد في البدن والعقل، ولكن يجب أن نعلم أن الأنبياء عليهم السلام لا تصيبهم الأمراض المنفرة أو المعدية كالجرب والبرص والجزام ولا يصيبهم الأمراض القلبية والشلل، ولا يصيبهم أيضا الأمراض العقلية كالهذيان والخرف، ولا الأمراض النفسية كالملوخوليا والتشاؤم بحيث تسود الدنيا بعينه، نعم يصيبهم بعض النهايات العصبية في نهايات أصابعه العلوية والسفلية، وضعف السمع في آذانهم وليس الصمم الكلي، وضعف البصر، ويمكن أن تصيبهم بعض الرضوض في مختلف أعضاء أجسامهم ويمكن أيضا أن يصيبهم بعض القلق الذي يؤدي إلى عدم النوم إلا قليلاً.

١٨- ونستنتج من قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام (لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا) أنّ الإخوة غالبا ما يكونون أعداء لبعضهم البعض، والرؤيا الصادقة والصالحة لا تقصص على الأعداء أما الأبناء فيمكن أن تقص عليهم الرؤى الصادقة لأن الابن هو جزء من أبيه ولأن محبتهم قلبية وليست عاطفية. وأنا أقول والله أعلم لو قص يوسف عليه السلام الرؤيا على إخوته لقتلوه لأنهم يعرفون تأويل الأحلام، وما سينتهي يوسف عليه السلام من الرفعة والسؤدد والمكانة العالية من تفسير هذه الرؤيا .

١٩- نلاحظ من خلال قصة يوسف عليه السلام أن البلاء النازل على النبي يعقوب عليه السلام أتى من قبل أولاده وذلك لامتحان النبي يعقوب عليه السلام إذاً ما ذنب النبي يوسف عليه السلام الذي ابتلي بعدة بلاءات مختلفة أقول والله أعلم هذه البلاءات النازلة على النبي يوسف عليه السلام كذلك بنفس الوقت هي امتحان للنبي يوسف عليه السلام لقوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام (أنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين). فعدّ الله سبحانه وتعالى صبر يوسف عليه السلام على بلائه من الإحسان وهو أعلى مقامات العبادة. وكل من ابتلي بأولاده مثل بلاء النبي يعقوب عليه السلام وصبر فله أجر مثل أجر صبر يعقوب عليه السلام على أولاده.

٢٠- ونستنتج أيضاً من قصة يوسف عليه السلام أن الرؤى الصادقة والصالحة والمبشرات لابد وأن تقع وتفسر ولو بعد حين كرؤيا يوسف عليه السلام وقعت وفسرت بعد أربعين سنة.

٢١- ونستنتج أيضا أن العفة والأمانة والاستقامة تكون مصدر الخير والبركة لمن تحلى بها والشواهد فيها واضحة والعبرة منها ماثلة لمن اعتبر.

٢٢- أثّر الخبر بغياب اثنين من أبنائه على الشيخ الكبير الصابر المحتسب الابن بنيامين الذي احتجزه يوسف عليه السلام بتهمة السرقة، والأخ الكبير الذي قال: (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين) وزاد في أحزانه وآلامه أن بقية أولاده كانوا يشددون عليه باللوم والتقريع، ولا يجد من يفرج عنه أحزانه وكرباته وبالعكس كان لا يجد إلا اللوم والتقريع ولذلك انعزل عنهم بقوله (وتولى عنهم وقال: يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم).

أي قام يعقوب عليه السلام من عند أولاده وأسرته وتولى عنهم وتذكر يوسف عليه السلام الذي كان يسليه عن أحزانه وينظر إلى وجهه الذي كان خير أنيس له وكأنه كان يشعر بنزول الرحمات الربانية عندما ينظر إلى وجهه ولقد كان يعقوب عليه السلام منفردا بآلامه وهمومه وأحزانه يكظم غيظه في أعماق نفسه وشعوره وكيانه فأثر هذا الكظم على سواد عينيه وغطى بياضها على سوادها وأصبح ضعيف البصر (وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) لأن يعقوب عليه السلام لم يشعر بمشاركة أحد همومه وأحزانه ولم يجد منهم إلا اللوم والتقريع، لا يكلم أحد بهذه الآلام لأنه لا يجد منهم مؤنسا ولا مشاركا ولا متنفسا فتزيد هذه الأحزان شدة في مشاعره وأعصابه عندما كان يكظمها ويخزنها في أعصابه فكانت تؤثر على حواسه وجسمه فيزداد مرضاً وسقماً ولقد أدى كظم آلامه وعدم تنفسها وبثها إلى أخ موآخ أدى ذلك إلى أمراض عضوية أثر ذلك على حواسه. قال الإمام الراغب: في معنى (كظم الغيظ) الكظم: مخرج النَفَس، والكظم انحباس النفس ويعبر عنه بالسكوت، فمعنى الكظم أي حبس آلامه وأحزانه ولم يخرجها لعدم وجود مشاركين. وقال الإمام (الراغب) في معنى (حرضا) أي لا خير فيه ولذلك يقال لمن أشرف على الهلاك حرضاً (٢١٩، ٢٢١)

أقول: ولا يخلو أب من هموم وأحزان إما من قبل أولاده وزوجته وإما من قبل فقره وضيق معيشته فان لم يجد مؤانسا من أولاده ولم يجد منهم إلا اللوم والتقريع وصبر على ذلك فإنه يكون له مثل أجر يعقوب عليه السلام على صبره على أحزانه وآلامه.

٢٣- ونستنتج أيضاً من قصة يوسف عليه السلام أن البلاء والمحن له بدايات ونهايات معلومة الوقت عند الله عز وجل فلا بد للمبتلى من الصبر وإن كان الدعاء مشروعاً ولا ينفع إلا به إلا أنه لا ينبغي للداعي أن يستعجل فهو يُتعبد بالصبر والدعاء والتسليم إلى الحكيم، ويقطع المواد التي كانت سبباً للبلاء، فغالب البلاء يكون عقوبة، فأما المستعجل فمزاحم للمدبر وليس هذا مقام العبودية وإنما المقام الأعلى الرضا والصبر والتلاقي بكثرة الدعاء فالاعتراض حرام والاستعجال مزاحمة للمدبر.

٢٤- ونلاحظ من معاني قصة يوسف عليه السلام أن عزة العلم ترفع أصحابها فوق الملوك، وبقدر صعود الإنسان في الدنيا تنزل مرتبته في الآخرة، وقد صرح بهذا ابن عمر رضي الله تعالى عنهما فقال: والله لا ينال أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله تعالى وإن كان عند الله كريماً فالسعيد من اقتنع بالبلغة فإن الزمان أشرف من أن يَضيع في طلب الدنيا اللهم إلا أن يكون مشروعاً في كسبه معيناً لنفسه عن

٢٥- ومن أسرار هذه القصة أن قوة الإيمان تظهر عند الابتلاء، ليس المؤمن بالذي يؤدي فرائضه صورة ويتجنب المحظورات فحسب إنما المؤمن هو الكامل الإيمان لا يختلج في قلبه اعتراض، ولا يساكن قلبه فيما يجري وسوسة، وكلما اشتد عليه البلاء زاد إيمانه وقوي تسليمه وقد يدعو فلا يرى للإجابة أثراً وسره لا يتغير، فإن اختلج في قلبه اعتراض خرج من مقام العبودية، لأنه يعلم أنه مملوك وله مالك يتصرف بمقتضى إرادته، والإنسان القوي الإيمان يبين أثره عند قوة البلاء فبكى يعقوب عليه السلام ثمانين عاماً ثم لم ييأس فلما ذهب ابنه الآخر قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[١٧٥]

٢٦- ونلاحظ أيضاً من فوائد قصة يوسف عليه السلام أن أنواع البلاءات التي نزلت على النبي يوسف عليه السلام هي نوع من التربية الإلهية لتؤهله إلى مقام النبوة كالوالد الذي يؤدب ولده تارة بالضرب وأخرى بالتأنيب والتوبيخ والزجر.. إلى آخره من التأديب وكذلك إذا كان الرجل يربيه ليؤهله إلى الولاية يعقوب.

٢٧- نلاحظ عندما قال النبي يعقوب عليه السلام: (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون) ذكر السورة والآية هل تعلم أن الشكوى إلى الله تعالى عبارة عن تعبير والضراعة والتذلل على بابه تقرب وطاعة، وأن أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه ويحبه.

٢٨- نلاحظ في هذه السورة أن الله سبحانه وتعالى وصف كيد النساء بالعظمة في قوله تعالى على لسان عزيز مصر (فلما رأى قميصه قد من دبر قال: إنه من كيد كن إن كيد كن عظيم) [١٧٦]

في حين أنه تعالى وصف كيد الشيطان بالضعف في قوله تعالى (إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) [١٧٧]

أعتقد والله أعلم استعظم كيد النساء لأن معظم النساء من طبعهن إثارة الفتن ويتصفن بالغيبة والنميمة وعدم كتم السر فينقلن الكلام بين الناس ويحصل من جراء ذلك بين المتكلم والمنقول إليه البغض

١٧٥- يوسف:٨٣

١٧٦- يوسف:٢٨

١٧٧- النساء:٧٦

وربما جرَّ من جراء ذلك فتنة كبيرة لا تحمد عقباها وربما أدى ذلك إلى حروب طاحنة تزهق فيها الأنفس والأرواح وترمل النساء من جراء نقل الكلام وعدم كتم السر يتبين لنا من ذلك أن فتنة النساء هي فتنة دنيوية بين الناس في حين أن فتنة الشيطان للمرء هي فتنة فردية أخروية ليصده عن الطريق المستقيم ويبعده عن طاعة الله تعالى ليخرجه من النور إلى الظلمات ومع ذلك فإنه ليس عليه من سلطان ولا قوة بحيث يجبره على المعصية وإنما ليس عليه إلا أن يوسوس في قلبه فإن أطاع الشيطان هلك وإن خالف الشيطان نجا وفاز من وسوسته تصور قوله تعالى على لسان الشيطان يوم القيامة (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان ليَ عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم ولا أنتم بمصرخي. . . . الخ) ذكر السورة والآية.

٢٨- نستنتج من صبر يوسف ويعقوب عليهما السلام على هذه المحن الشديدة أن هناك فرق بين المخلِص لله والمخلَص لله فالإنسان المخلِص لله يمكن أن يكون مخلِصاً لله تعالى بعبادته، وأما المخلَص فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتولى إخلاصه أي يتولى أموره الأخروية ويكون تحت عنايته ورعايته والنبي يعقوب والنبي يوسف عليهما السلام كانا من المخلَصين كانا في رعاية الله تعالى وعنايته منذ الأزل والمخلَص هو من أحباب الله تعالى منذ الأزل. وأن النبي يعقوب عليه السلام استحق أن يكون صفياً لله لأنه ابتلي ببلاء كبير وثخين بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾١٧٨ ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾١٧٩ ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾١٨٠ والمعنى اصطفيناهم في الدنيا واجتبيناهم أيضاً في الآخرة.

١٧٨- ص : ٤٥

١٧٩- ص : ٤٦

١٨٠- ص : ٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة

نحن نعلم أن الرجل الأجنبي متى بلغ من العمر عتياً صار الناس يسألونه عن تجاربه الدنيوية ليستفيد منها غيرهم في حياتهم ولتكون لغيرهم عبرة للأجيال التي تأتي بعده.

وقد أحببت في هذه الخاتمة أن أكتب نبذة عن تجاربي الخاصة في هذه الفترة من حياتي التي قاربت فيها على الثمانين سنة لعلها تكون للقراء عوناً وفائدة وموعظة يستفيد منها في حياتهم الدنيوية وهي كما يلي:

وجدت أن العلوم التي ترد على القلب تأتي عن طريقين:

إما علوم مكتسبة تأتي عن طريقي العلم والتعلم والمثابرة على قراءة الكتب.

وإما أن تأتي إلهاماً فتنصب على القلب إيحاءً ونفثاً.

وهذه العلوم مبذولة بحكم جود الله وكرمه لكل الناس فلا هي مختصة بأناس دون آخرين وليس للكاتب أن يكون من أصحاب الشهادات العالية قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١٨١] ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قال عليه الصلاة والسلام (إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها) والحديث متفق عليه. وقد وجدت بالتجربة خلال تأليفي للكتب من هذه النفحات.

أولاً-تطهير القلب وتزكيته من الأخلاق المذمومة والكدورات الحاصلة من الأخلاق المذمومة وتجنب المعاصي، لأن العلم نور يقذفه الله تعالى في قلب المؤمن.

كما قال الشافعي رحمه الله تعالى:

شكوت إلى وكيع سوء فهمي فأرشدنني إلى ترك المعاصي

وأخبرني أن العلم نور ونور الله لا يهدي العاصي

١٨١- فاطر : ٢٧

ولذلك نرى أن من آفات المعاصي ترك العلم كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلم لن تحجب عن القلوب لا لبخل ومنع من جهة المنعم تعالى وحاش الله تعالى عن البخل علواً كبيراً، ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل في القلوب في الأمور الدنيوية، فإن القلوب كالأواني فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء، فالقلوب المشغولة لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه المعرفة بجلال الله تعالى وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: (لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء) رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه بنحوه من أحاديث الإحياء.

ثانياً: أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافياً فإنه لا تتفتح فيه جلية الحق لأنه لا يطلب الحق وليس محاذياً بمرآة شطر المطلوب، بل ربما يكون مستوعباً الهم بتفضيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس أو مصالح المعيشة إن كان متفكراً فيها

ثالثاً: ولا بد للكاتب أن يتحلى بالتقوى والمثابرة على قراءة القرآن يوماً إن كان قليلاً أو كثيراً لأن قراءة القرآن ينور القلب، وأن يثابر أيضاً على مطالعة الكتب من مختلف العلوم وأن يتحلى بالصبر وأن يكون تأليفه للكتب الغاية منها نشر العلم والدعوة إلى الله تعالى لا لدنيا يصيبها أو سمعة ينالها من الناس وقد وجدت أن المكتسب من العلوم بواسطة العقل ينصرف إلى العلوم الدنيوية والأخروية وطريقهما متناقضان فمن صرف عقله إلى أحدهما قصرت بصيرته عن الأخرى على الأغلب.

٢-وجدت أنه لا يجتمع عند المرء حب الدنيا وحب الآخرة وقد رأيت أن مسبب الهموم والأحزان الإعراض عن الله تعالى والإقبال على الدنيا.

٣-وقد رأيت أنه ليس في الوجود أشرف من العلم كيف لا وهو الدليل على الطريق المستقيم الذي يوصل به إلى الله عز وجل، فإذا عُدم وقع الضلال، وإن من خفايا مكائد الشيطان أن يزين في نفس الإنسان التعبد ليشغله عن أفضل التعبد وهو العلم.

٤-وجدت ان المصائب والمحن المختلفة التي تهدد الإنسان في هذه الحياة الدنيا أو تنزل به إلا أسباب وعوامل تنبهه لعبوديته وتصرف آماله وفكره إلى عظمة الله سبحانه وتعالى وباهر قدرته كي يفر إليه سبحانه وتعالى ويبسط أمامه ضعفه وعبوديته ويستجير إليه من كل فتنة وبلاء.

٥-وجدت أنه ليس في الوجود شيء أصعب من الصبر إما على المحبوبات أو على المكروهات وخصوصاً إذا امتد الزمان أو وقع اليأس من الفرج وتلك المدة تحتاج إلى زاد يقطع به سفرها لا جرم أن الله تعالى يؤنسه بالمرائي الصادقة والصالحة والمبشرات وبرؤية الرسول صلى الله عليه وسلم وخاصة في آخر الزمان عندما تكثر الفتن والملاحم ويقل فيه الصديق الصالح.

٦- وقد وجدت من تجاربي الخاصة أن القلق النفساني الذي هو حالة من الحالات النفسية التي تعمل في القلب كما يعمل الدود في اللحم المنتن يأتي القلق عن طريقين:

الأول: إذا كان هناك أمر يجب أن يعمله إما سهواً أو خطأً.

الثاني: إذا عمل أمراً واجتهد في نتيجة أمره بأنه صح ويأتيه بالخير ثم بعد ذلك تبين فيما بعد أن هذا الأمر كانت نتيجته عكس ما يريد وربما جر من ورائه البلاء والمحن.

٧-وقد وجدت أنه من أعظم الغلط الثقة بالناس والاسترسال إلى الأصدقاء فإن أشد الأعداء وأكثرهم أذى الصديق المنقلب عدواً لأنه اطلع على خفايا سرك قال الشاعر:

احذر عـــدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديق فكان أعـلم بالمضـــرة

وأعظم الثقة بالأصدقاء الثقة بالأقارب لأن من الأمر الموضوع في النفوس الحسد على النعم والعلم أو الغبطة وحب الرأفة فإذا رآك صديقك أو قريبك وقد ارتقيت عليه بالمال أو العلم أو الجاه فلا بد أن يتأثر وربما حسدك، فإن أخوة يوسف عليه السلام من هذا الجنس جرى لهم ما شأنهم من الحسد والغبطة من يوسف عليه السلام. حتى أن من الأزواج والأولاد إذا عملوا عمل الأعداء كانوا أعداء كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[١٨٢] وأنا أقول:

احذر عدوك مـرة واحذر أقاربك ألف مـرة

١٨٢- التغابن : ١٤

وكما يقولون في المثل العالمي: أعداء الأقارب كلسع العقارب

٨- ومن خلال تجاربي في الحياة أن الحياة عندما تكون على وتيرة واحدة أي سرور لمدة طويلة أو بلاء وحزن لمدة طويلة تصبح الحياة على هذا الشكل مملة ومكروهة، ومن فضل الله تعالى علينا أن جعل الحياة متناوبة أي أيام فيها سرور وفرح وأخرى فيها بلاء وحزن، فإن كانت الحياة كلها سرور وفرح فإنك تنسى عبوديتك وأن لك رب وربما نسيت التكاليف الربانية. وإن كانت الحياة كلها حزن وبلاء فإنك أيضاً تنسى ذكر الله تعالى كما قال يوسف عليه السلام إن طول البلاء أنساني ذكر الله تعالى ولا يستلذ الإنسان في مأكل ولا مشرب ولا نومه وتصبح حياته تعيسة وتراه دائماً مهموماً ولا يشتهي حتى الكلام.

٩-وجدت أن الوقوع في الخطيئة الدنيوية أصعب من الوقوع في الذنب، لأن الذنب إذا استغفرت وتبت منه ربما غفره الله لك إن شاء الله تعالى أما الوقوع في الخطيئة الدنيوية فإنها تبقى ولا تغفر لك وربما سببت لك هذه الخطيئة قلقاً شديداً وطويلاً وخاصة إذا كانت الخطيئة فيها مضرة للغير فإنما يشتد ألمك وقلقك أكثر وربما جازاك الله في الدنيا بمثل الخطيئة التي أضرت بالغير وأنت لا تشعر.

١٠-وجدت أن الناس انقسموا إلى فريقين:

الفريق الأول: وجهوا تفكيرهم نحو الآخرة وهؤلاء تركوا الدنيا وراء ظهورهم واعتبروا أن هذه الدنيا دار مؤقتة ولا بد من الرحيل منها وهؤلاء الذي وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبلهاء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دخلت الجنة فرأيت أكثر أهلها البلهاء) أي ضعيفين العقل وبدائي التفكير في الأمور الدنيوية وهم الذين يسمونهم العامة الغشيم أو الغبي وعلامات هؤلاء أن الأمور الدنيوية تأتيهم بعكس ما يريدون أما الأمور الأخروية فميسرة لهم.

الفريق الثاني: يوجهون تفكيرهم نحو الدنيا وهؤلاء ليس همهم في هذه الدنيا إلا جمع المال وربما حبهم لجمع المال أنساهم ذكر الله تعالى ومنهم من يشغلهم جمع المال ترك الصلوات المفروضة والطاعات ومن علامات هؤلاء أن الأمور الدنيوية ميسرة لهم ويقولون ليوم الله بيفرجها الله أما إذا كان جمع المال لسد حوائج الناس فهو محمود على شرط أن لا ينسى الآخرة.

١١-وجدت أن المكتسب من العلوم بواسطة العقل ينصرف إلى العلوم الدنيوية والأخروية وطريقهما متناقضان فمن صرف عقله إلى أحدهما أضر بالأخرى على الغالب ولذلك فإنه لا يجتمع عند المرء حب الدنيا وحب الآخرة، ومن المعلوم أن سبب الهموم والأحزان البعد والإعراض عن الله تعالى عز وجل، والإقبال على الدنيا وكلما فات منها شيئاً وقع الغم لفواته فأما من رزق معرفة الله تعالى استراح لأنه يستغني بالرضا بالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى فمهما قدَّر إن كان خيراً أو شراً يرضى به لأنه ملوك للمدبر.

١٢-وقد وجدت أن من أراد السلامة في هذا الزمن فليلزم بيته وإذا لم يستطع فليأخذ ولو قسطاً بسيطاً من العزلة لأنني وجدت أن المسلم لا يكمل إيمانه وإسلامه مهما كان متحلياً بالفضائل قائماً بألوان العبادات حتى يجعل من نفسه إلى ذلك ساعات من العزلة والخلوة يحاسب فيها نفسه ويراقب الله تعالى في السر والعلن ويفكر في مظاهر هذا الكون العظيم الذي يدل على عظمة خالقه، هذا في حقوق أي مسلم يريد لنفسه الإسلام الصحيح. انتهى الكتاب بعون الله تعالى وفضله، نرجو من الله تعالى أن ينفع به المسلمين وجزى الله عنا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كل خير، الذي جاءنا بالهدى من عند الله تعالى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

دار إحياء للنشر الرقمي